الموسوعة التاريخية
للخلفاء الفاطميين

الخليفة الثامن:

المستنصر بالله

تأليف
عارف تامر
دكتور في الآداب



دار
الجيل



الطبعة الاولى

١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

الخليفة الفاطمي الثامن

اسمه « المستنصر بالله » . لقبه : « معد » . كنيته : « أبو تميم » ولد في القاهرة « المعزّية » في السادس عشر من جمادى الآخرة سنة ٤٢٠هـ ، وبويع بالخلافة في النصف الأول من شعبان سنة ٤٢٧هـ ، بعد وفاة والده الخليفة « الظاهر لاعزاز دين الله » وكان له من العمر وقتئذٍ سبع سنين وعدة أشهر .

توفي في القاهرة « المعزية » سنة ٤٨٧هـ عن سبع وستين عاماً وخمسة أشهر ، قضى منها في الخلافة ستين سنة وأربعة أشهر وثلاثة أيام .

كانت أمه أمة سوداء تربّت لدى تاجر يهودي في مصر اسمه : « سهل بن هارون التُستري » كما ذكرنا في الجزء السابع من هذه الموسوعة ، وكان الخليفة « الظاهر لاعزاز دين الله » قد ابتاعها منه واستولدها « المستنصر بالله » ، فلمّا آلت الخلافة إليه وهو في سن مبكّر قبضت على شؤون الدولة

بمعاونة مربيها « التُستري » وبإشراف الوزير « الجرجرائي » .
وقد ذكر التاريخ :

بأنها كانت على جانب كبير من الذكاء والفهم وبعد النظر . . . تضع الأمور في محلها ، وتحكم على القضايا المعروضة والطارئة بالواقع والعقل . . . وعندما اشتد ساعد ولدها وكبر . . . تسلّم شؤون الخلافة وأدار دفتها وفق توجيهات والدته الساهرة اليقظـــة .

وممّا هو جدير بالذكر : ان عهد الخليفة « المستنصر بالله » يعتبر في التاريخ من أطول العهود . ومتى علمنا أن المدة التي قضاها في الخلافة تجاوزت الستين عاماً أدركنا أية أحداث جسام فرض عليه مواجهتها .

ومهما يكن من أمر . . . فإن الخبراء في الدراسات الفاطمية يعتبرون عهد « المستنصر بالله » بداية النهاية . . . ومعنى ذلك انه آخر خليفة شرعي للفاطميين ، إذ أن بعد وفاته ــ وان تكن الخلافة الفاطمية قد استمرّت فترة أخرى في الديار المصرية ــ إلاّ أنها ارتدت طابعاً آخر قام على اللاشرعية . فالخليفة الذي تسلم بعد « المستنصر بالله » لم يكن هو صاحب النص الشرعي ، وان جلوسه على كرسي الخلافة تمّ بطريقة الاغتصاب بعد

مؤامرة كبرى أطاحت بالوارث الأصيل ... وكل هذا سنأتي على ذكره في الجزء التاسع من هذه الموسوعة .

ذكر التاريخ :

بان الخليفة « المستنصر بالله » كان يتميز بطيبة القلب ، ومحبته لشعبه ، وحدبه على الفقراء . وكان بالاضافة إلى كل ذلك يحب الأدب ويقرّب العلمـــاء ويعطف عليهم ويساعدهم ، وكان يتذوّق الشعر ويقرضه . . وذكر أنه ترك ديواناً. ولكن الآثار الفاطمية لم يبق على شيء منها « صلاح الدين الأيوبي » اثر سقوط الدولة الفاطمية وكنّا ذكرنا لمحة عن ذلك .

وزراء المستنصر بالله

بلغ عدد الوزراء الذين استخدمهم الخليفة « المستنصر بالله » رقماً تجاوز الخمسين . ومن إلقاء نظرة على أسمائهم وموجز عن تاريخهم يتبين أن أكثرهم كانوا يمكثون أياماً في الحكم ثم يصرفون ثم يعودون وهكذا دواليك . . . وكل هذا أوجد جواً من الفوضى وعدم الاستقرار في الدولة . . . مما سنذكره في الصفحات التالية :

١ — « علي بن أحمد الجرجرائي » « فخر الأمة — صفي أمير المؤمنين » .

هو وزير الخليفة « الظاهر لاعزاز دين الله » . . . كان مقطوع اليدين من المرفقين . . . وقيل ان الخليفة « الحاكم بأمر الله » قطعهما سنة ٤٠٤هـ على باب القصر البحري بعد أن اتهم بالفساد والرشوة ، وكان آنئذٍ يتولى رئاسة بعض الدواوين العليا .

عراقي الأصل . . . فاطمي المذهب . . . موطنه قرية « جرجرايا — بسواد العراق » . . . في سنة ٤٠٩هـ عُيِّن على رأس ديوان النفقات ، ثم صار فيما بعد وزيراً للخليفة « الظاهر » أي سنة ٤١٨هـ ، وبعد وفاة « الظاهر » أخذ البيعة « للمستنصر بالله » . . . من أعماله أنه أعاد النظام إلى ديار الشام . ودبّر أمور الدولة المالية . . . توفي سنة ٤٣٦هـ . . ومدة وزارته سبع عشرة سنة وثمانية أشهر . كان مخلصاً للخليفة « الظاهر » وبعده « للمستنصر بالله » .

٢ — « الحسن بن علي الانباري » :

من أصحاب « الجرجرائي » . . . خلفه في الوزارة . ولكنه لم ينعم بهذا المنصب لان أمره قد فسد بسبب عداوته « للتُستري » أخيراً : قبض عليه وصودرت أمواله وقتل في سجنه . . . كان فاطمياً . . . وذكر أنه عراقي .

٣ — « صدقة بن يوسف الفلاحي » « فخر الملك » .

كان يهودياً ثم أسلم وانتسب إلى المذهب الفاطمي . . . كان بارعاً في ضروب الكتابة والبلاغة . . . ولي أولاً النظارة في الشام . ولكنه فرَّ من أمير الجيوش « أنوشتكين الدزبري » وقدم إلى القاهرة « المعزيَّة » حيث لاذ « بالجرجرائي » الذي

رقّاه وأشار على الخليفة بتوزيره ، دخل الوزارة سنة ٤٣٦هـ... في عهده سيطر التُستري » على كل شيء ، ولم يبق له من الوزارة إلاّ الإسم ... ولمّا ضاقت به الأمور ... أغرى الجنود الأتراك ودفعهم لقتل « التُستري » وظنّ بعد ذلك أن الدنيا صفت له ، وان الجو خلا له ، ولكن التحقيقات السرّية كشفت عن اشتراكه بالمؤآمرة ، وهكذا أقصي عن الوزارة وقتل سنة ٤٤٠هـ .

٤ – « الحسين بن أحمد بن محمد الجرجراني » « عماد الدولة »

هو ابن أخي الوزير « علي الجرجرائي » ... خلف « الفلاحي » في الوزارة ... كان سيء السيرة ... في عهده قبض على كثير من الأبرياء ، وازدادت المصادرات للأموال والنفي والتشريد ... فكثر ذمّ الناس له ... لأنه كان يتصرف بظلم الناس دون رأي الخليفة وقد حاول أن يبعد « اليازوري » الذي حل محل « التُستري » في ديوان « أم المستنصر بالله » ويشغله بمنصب قاضي القضاة ، ولكن « اليازوري » أحبط مسعاه وبقي في منصبه . أخيراً ... كان نتيجة فشله في سياسته الداخلية والخارجية أن غضب عليه الخليفة ، فنفاه إلى « صور » سنة ٤٤١هـ ثم أفرج عنه فذهب إلى دمشق وأقام فيها ... كان فاطمياً ... وكانت مدة وزارته سنة وتسعة أشهر وعشرة أيام .

٥ — « صاعد بن مسعود » « عميد الملك » « زين الكفاة ».

كان من كبار رؤساء الدواوين، والمسؤول الأول عن ديوان « الشام » ... بعد ابعاد « الجرجرائي » ... ظلّ منصب الوزارة شاغراً عدة أيام، فعرضت عليه الوزارة على أن يكون « وسيطاً » لا وزيراً فقبل ولكن يبدو أن « اليازوري » وضع المصاعب في طريقه. وهكذا عزل سنة ٤٤٢ هـ بعد بقائه أقل من عام في الوزارة ... كان مسلماً سنياً.

٦ — « الحسن بن علي بن عبد الرحمن اليازوري :

« غياث المسلمين » — « خليل أمير المؤمنين » :

هو من أشهر وزراء القلم في الدولة الفاطمية ... كان وزيراً ناجحاً وأدّى للدولة الفاطمية خدمات كبرى في المجالين الداخلي والخارجي ... فلسطيني الأصل من قرية « يازور » مسلم — سني كان والده ثرياً معدوداً ... انتقل إلى « الرملة » وولي القضاء فيها، وعندما نقل إلى القاهرة « المعزيّة » اتصل « بأم المستنصر بالله » فأعجبت به وعينته مديراً لأعمالها بعد مقتل « التّستري » فاتسع نفوذه وأضيف إليه قضاء القضاة. وعندما شغرت الوزارة بعد « صاعد بن مسعود » سنة ٤٤٢ هـ عيّن فيها ... لعب دوراً كبيراً في حياة الدولة الفاطمية.

وظلّ يملك ناصية الأمور حتى قبض عليه سنة ٤٥٠ هـ وقتل في « تنيس » بعد أن ثبتت عليه مراسلة القائد السلجوقي « طغرلبك » المعادي للفاطميين .

٧ — « عبد الله بن محمد البابلي » :

« كفيل الدين — « شرف الملّة » :

تولّى الوزارة ثلاثة مرّات . . . كان في عهد « اليازوري » رئيس ستة دواوين عليا ، أسندت إليه الوزارة مباشرة بعد « اليازوري » . . . كانت سيرته سيئة في الأوساط ، وكانوا يذكرون إساءته لمن أحسن إليه وأعني به « اليازوري » بحيث وشى به . . . صرف من الوزارة الأولى بعد سبعين يوماً . . . ثم اعتقل . . . ثم أفرج عنه ، كان مسلماً سنياً .

٨ — « محمد بن جعفر المغربي » :

هاجر من العراق إلى مصر فراراً من « البساسيري » فاتصل « باليازوري » الذي ولاّه « ديوان الجيش » . . . كانت « أم المستنصر بالله » توليه عناية خاصة ، وهكذا « اليازوري ».قبض عليه في جملة من قبض عليهم من أصحاب « اليازوري » وظلّ معتقلاً حتى تقررت له الوزارة وهو في المعتقل وذلك بعد عزل « البابلي » . . . ظلّ رئيساً لديوان

الإنشاء بعد صرفه من الوزارة . . . توفي سنة ٤٧٨ هـ . . . كان مسلماً سنياً . مدته لم تتجاوز الأشهر .

٩ — « عبد الله بن يحيى بن المدبر » :

« شرف الوزراء » — « تاج الأصفياء » :

عُرفت أسرته في الدولة العباسية بالعراق . . . كان يتصف بالأدب . . . وهو ولد « ابن المدبر » متولي خراج مصر في أيام « ابن طولون » . . . تولّى الوزارة مرتين وتوفي سنة ٤٥٥ هـ . . . مصري . . . مسلم . . . سني .

١٠ — « عبد الكريم بن عبد الحاكم بن سعيد الغارقي » :

« كفيل الدين — « قاضي القضاة » :

كان والده قاضياً لطرابلس — الشام ، ثم انتقل إلى القضاء في مصر . . . وكان أفضل من تولاّه توفي وهو في الوزارة سنة ٤٥٤ هـ . . . مصري . . . مسلم . . . فاطمي .

١١ — « أحمد بن عبد الحاكم بن سعيد » :

« ثقة المسلمين » — « خليل أمير المؤمنين » :

كان مثل أبيه وأخيه يعمل في القضاء . . . وكان مأموناً ديّناً محقاً . . . انتقل من القضاء إلى الوزارة . . . لم تحدد المدة التي قضاها في الوزارة . . . ذكر التاريخ أنها سبعة عشر يوماً مصري . . . مسلم . . . فاطمي .

١٢ — « علي بن محمد بن الحسن بن عيسى الماشلي » :
« سديد الدولة » — « ذو الكفايتين » :

أديب كبير وكاتب مبرز غزير المادة . . . تولّى نظارة دواوين الشام وكانت إقامته في دمشق . . . استدعي إلى مصر وتقلّد الوزارة . . . ظلّ في الحكم من ربيع الأول سنة **٤٥٤ هـ** حتى ٢ من شعبان من السنة . . . في عهده حدثت الواقعة المشهورة بين العبيد والأتراك . . . تولّى بعد صرفه من الوزارة ديوان الشام ثم رحل إلى « صور » حيث أقام فيها عدة سنين ، وعاد إلى مصر أخيراً وأصبح مشرفاً على شؤون الاسكندرية ... ثم صرف من الخدمة . . . توفي سنة ٤٨٧ هـ كان . . . مصرياً . . مسلماً . . . سنياً .

١٣ — « البابلي » :

للمرة الثانية . . . من شعبان سنة ٤٥٤ هـ إلى المحرم سنة ٤٥٥

١٤ — « أحمد بن عبد الكريم بن عبد الكريم » :

« مجد الاصفياء » — « سيد الوزراء » :

كان مثل عمه يتولّى القضاء تارة والوزارة أخرى . . . صرف من الوزارة بعد شهرين أي (من) ١٣ للمحرم سنة

٤٥٥ هـ حتّى ١٧ صفَر من السنة . توفي في الشام . . . مصرياً . . . فاطمياً . .

١٥ — « ابن المدبر » :

للمرة الثانية . . . صفر أو ربيع الأول سنة ٤٥٥ هـ حتّى وفاته ١٩ من جمادى الأول من السنة المذكورة .

١٦ — « عبد الظاهر بن الفضل بن الموفق في الدين « ابن العجمي » « تاج الوزراء » — « الأمين المكين » :

اشتهر بالجرأة والإقدام . . . ولي الوزارة غير مرة من ١٩ من جمادى الأولى سنة ٤٥٥هـ حتّى صرف وقبض عليه في ٢٧ من شعبان من السنة المذكورة . مصري . . . مسلم . . . سني

١٧ — « الحسن بن أسد بن أبي كدينة » :

« جلال الإسلام » — « ظهير الإمام » :

مثله مثل أبناء عبد الحاكم في التردد بين الوزارة والقضاء . . . كان سيء الطبع وقاسي القلب . . . عرف بأنه من ولد « عبد الرحمن بن ملجم » قبض عليه « بدر الجمالي » وسيّره إلى « دمياط » حيث قتل فيها . . . مسلم . . . سني . . . من شعبان سنة ٤٥٥ هـ حتّى ٥ ذي الحجة سنة ٤٥٥ هـ .

١٨ — « أحمد بن عبد الكريم بن عبد الحاكم » :

للمرة الثانية ٥ من ذي الحجة سنة ٤٥٥ هـ حتّى ١٣ من المحرّم سنة ٤٥٦ هـ .

١٩ — « المشرّف بن أسعد بن عقيل » :

« وزير الوزراء » — « أبو المكارم » :

من صنائع « البابلي » وخاصته . . . كان رئيساً للديوان الذخيرة . . . ولي الوزارة مرتين وأخيراً قتله « بدر الجمالي » فيمن قتل من وزراء مصر ورجالها . . . من ١٣ من المحرم سنة ٤٥٦ هـ حتّى ٢٧ من ربيع الآخر من السنة المذكورة . . . مسلم . . . سني .

٢٠ — « ابن العجمي » :

للمرة الثانية من ربيع الآخر حتّى رجب سنة ٤٥٦ هـ .

٢١ — « الجرجرائي » :

للمرة الثانية مستهل رجب سنة ٤٥٦ هـ حتّى العشر الأخير من رمضان سنة ٤٥٦ هـ .

٢٢ — « ابن أبي كدينة » :

للمرة الثانية — العشر الأخير من رمضان سنة ٤٥٦ هـ حتّى الرابع من ذي الحجة من السنة المذكورة .

٢٣ — الحسن بن إبراهيم بن سهل التّستري « :

« العميد » — « علم الكفاة » :

كان يتولّى بيت المال قبل إسناد الوزارة إليه . . . ينسب إلى « تُستَر » وهي بلدة من كور « الأهواز » في « خوزستان » من ٤ من ذي الحجة سنة ٤٥٦ هـ حتى منتصف المحرّم سنة ٤٥٧ هـ

٢٤ — « محمد بن الأشرف بن علي خلف » :

« فخر الملك » — « أبو شجاع » :

كان أديباً وله كتاب « مواد البيان » في ترتيب كتاب الدول . . . ولي الوزارة ليوم واحد . . . عراقي . . . مسلم . . . فاطمي .

٢٥ — « ابن كدينة » :

للمرة الثالثة ولمدة أربعة أيام من ١٧ إلى ٢١ من المحرّم سنة ٤٥٧ هـ .

٢٦ — « ابن خلف » :

للمرة الثانية من ٢١ المحرم حتّى منتصف ربيع الأول سنة ٤٥٧ هـ .

٢٧ — « هبة الله بن محمد الرعياني » :

« تاج الأصفياء — « سديد الدولة » :

يقال إنه عراقي . . . ولي الوزارة مرتين . . . وكل مرة عشرة أيام من منتصف ربيع الأول سنة ٤٥٧ ﻫ حتى آخره .

٢٨ — « ابن كدينة » :

للمرة الرابعة ربيع الآخر سنة ٤٥٧ ﻫ وصرف عنها في منتصف رجب سنة ٤٥٧ ﻫ .

٢٩ — « المشرف بن أسعد » :

للمرة الثانية من منتصف رجب حتى العشر الأخير من شوال سنة ٤٥٧ ﻫ .

٣٠ — « علي بن الأنباري » — « كافي الكفاة » :

كان صديق « المؤيد في الدين — هبة الله الشيرازي » يقال انه ابن الوزير « الحسن بن الأنباري » أقام شهراً وصرف في ذي الحجة سنة ٤٥٧ ﻫ .

٣١ — « ابن كدينة » :

للمرة الخامسة من ذي الحجة سنة ٤٥٧ ﻫ حتى ٢٦ صفر سنة ٤٥٨ ﻫ .

٣٢ — « الرعياني » :

للمرة الثانية من ٩ ربيع الآخر حتى ١٦منتصفسنة٤٥٨هـ.

٣٣ — « أحمد بن عبد الكريم » :

للمرة الثالثة من ٤ جمادى الآخرة سنة ٤٥٨ هـ وقد صرف عنها بعد أيام .

٣٤ — « الحسن بن سديد » :

« تاج الرئاسة » — « سيد السادات » :

هو أخ الوزير الماشلي السابق ذكره . . . أقام أياماً ثم صرف . . . سار بعدها إلى الشام مع أخيه نصر ثم عادا إلى مصر . . . مسلم . . . سني .

٣٥ — « ابن خلف » :

للمرة الثالثة أقام أياماً وصرف .

٣٦ — « طاهر بن وزير » :

« نفيس الدولة — « سيد الكفاة » :

هو من أهل طرابلس الشام . . . كان على ديوان الإنشاء جمادى الآخرة أو رجب سنة ٤٥٨ هـ . أقام أياماً وصرف . . . شامي . . . مسلم سني .

٣٧ — « محمد بن حامد التنيسي » :

« شمس الأمم » — « سيد رؤساء السيف والقلم » :

هو من أهل « تنيس » كان ذا يسار ورفعة . . . وزارته كانت أيام الفتن والفوضى . . . أقام يوماً واحداً وقتل بعد ذلك . . . مصري . . . مسلم سني .

٣٨ — « منصور بن أبي اليمن » بن زنبور » :

« عميد الخلافة » — « شرف الكفاة » :

كان والده نصرانياً ومنصور على دينه فلما أفضت إليه الوزارة أسلم . . . أقام أياماً فطالبه الجند بأرزاقهم فوعدهم وطمأنهم ثم هرب أخيراً خوفاً على حياته . مصري . . . نصراني .

٣٩ — « عبد الغني بن نصر بن سعيد الضيف » :

كان يخدم « اليازوري » في دولته . . . قبض عليه أمير الجيوش « بدر الجمالي » ونفاه إلى « قيسارية » ثم نقله إلى « تنيس » حيث قتل فيها . . . بقي في الوزارة أياماً ثم صرف عنها .

٤٠ — « ابن كدينة » :

صرف عنها يوم الثلاثاء الثامن من المحرم سنة ٤٥٩ هـ .

٤١ — « عبد الحاكم المليجي » :

الثامن من المحرم حتى ٧ جمادى الآخرة سنة ٤٥٩ هـ .

٤٢ — « ابن كدينة » :

أقام أياماً وصرف .

٤٣ — « المليجي » :

أقام ليلتين ثم صرف .

٤٤ — « ابن كدينة » :

أقام إلى ٢٨ من ذي القعدة سنة ٤٥٩ هـ .

٤٥ — « أحمد بن عبد الكريم بن عبد الحاكم » :

للمرة الرابعة تولّى الوزارة ٢٨ من ذي القعدة سنة ٤٥٩هـ .

٤٦ — « ابن كدينة » :

المحرم سنة ٤٦٠ هـ .

٤٧ — « المليجي » :

صفر سنة ٤٦٠ هـ .

٤٨ — « ابن كدينة » :

ربيع الأول حتى جمادى الأولى سنة ٤٦٠ هـ .

٤٩ — « أحمد بن عبد الكريم بن عبد الحاكم » :

جمادى الأولى حتى ١٠ من ذي الحجة سنة ٤٦٠ هـ .

٥٠ — « ابن كدينة » :

١٠ من ذي الحجة سنة ٤٦٠ هـ حتى ٢٣ صفر سنة ٤٦١ هـ .

٥١ — « محمد اليازدي » : « خطير الملك » :

تولّى الوزارة سنة ٤٦١ هـ ولا نعرف متى صرف ؟ فلسطيني . . . مسلم . . . سني .

٥٢ — « محمد بن جعفر المغربي » :

للمرة الثانية وغير معروف تاريخ توليته ولكنه صرف في رمضان سنة ٤٦١ هـ .

٥٣ — « أحمد بن عبد الكريم بن عبد الحاكم » :

رمضان سنة ٤٦١ وصرف بعد أيام .

٥٤ — « محمد اليازوري » :

للمرة الثانية رمضان سنة ٤٦١ هـ حتى شوّال من العام نفسه قتله القائد « شاذي » بسبب وشاية .

٥٥ — « ابن كدينة » :

من شوال إلى ذي القعدة سنة ٤٦١ هـ .

٥٦ — « المليجي » :

في ذي القعدة سنة ٤٦١ هـ ولم يذكر تاريخ صرفه .

٥٧ — « ابن كدينة » :

ربيع الأول سنة ٤٦٤ هـ حتى آخر السنة .

٥٨ — « العجمي » :

للمرة الثالثة سنة ٤٦٥ هـ . . . قتل في رجب من السنة المذكورة قتله القائد « الدكز » .

٥٩ — « ابن كدينة » :

ربيع الأول سنة ٤٦٦ هـ حتى قتله « بدر الجمالي » في جمادى الأولى من السنة .

٦٠ — « بدر الجمالي » :

« أمير الجيوش — « سيف الإسلام » :

من ٢٨ جمادى الأولى سنة ٤٦٦ هـ إلى سنة ٤٨٧ هـ .

أرمني الجنسية كان مملوكاً « لجمال الدولة بن عمّار »

وتربّى عنده فخرج واعتبر من ذوي الشهامةوالعزم والرجولة.. تنقل في الرتب حتى ولي بلاد الشام ، وتقلّد إمارة دمشق مرتين ، ولمّا ثار عليه أهلها رحل إلى عكا . . . وكانت أحوال مصر في تلك الفترة تسير من سيء إلى أسوأ ، فالجيش قد تغيّر والجنود قد تبعثّروا ، والفتن قد اتصلت وتأصلت ، والوزراء يقفون بالاسم دون الأمر والنهي ، والرخاء والإصلاح لا وجود له . . . وقبيلة « لواته » قد ملكت الريف ، والعبيد استولوا على الصعيد ، والطرقات انقطعت براً وبحراً إلاّ بالخفارة الثقيلة ، والمارقون ينوي بعضهم لبعض الاحتيال والغدر ، ويضمر كل منهم لصاحبه البغي والاحتيال .

فوصلت إليه دعوة الخليفة « المستنصر بالله » فجاء وتسلّم الوزارة ، فتمكن من القضاء على مثيري الفتن وأعاد الاستقرار والهدوء للبلاد ، ورتّب الدواوين والمستخدمين وأخذ الازدهار يعود للبلاد من جديد . . . ويذكر التاريخ :

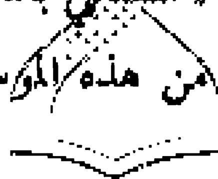
إن بدراً تحكّم في البلاد وسيطر على أمورها ، وردّ الغزوات عنها ، فهو من الشخصيات التي لعبت دوراً بارزاً على مسرح الدولة الفاطمية . . . مات سنة ٤٨٧ ﻫ قبل الخليفة « المستنصر بالله » بعدة أشهر .

تزوّج الخليفة « المستنصر بالله » ابنته ورزق منها « غلاماً » سمّاه « المستعلي بالله » .

٦١ — « الأفضل بن بدر الجمالي » :

« سيف الإمام » — « شاهنشاه » :

تولّى الوزارة سنة ٤٨٧ هـ بعد وفاة والده . . . ومن المعلوم أنه تمرن على شؤون الحكم بعهد والده . . . يعتبر من وزراء الخليفة التاسع « المستعلي بالله » أو القيّم عليه . « سنتكلم عنه في الجزء التاسع من هذه الموسوعة » .



الاحداث والاعاصير الداخلية

نلاحظ ونحن نستعرض أسماء الوزراء الذين استخدمهم الخليفة الفاطمي « المستنصر بالله » أن الدولة التي كانوا ينتمون إليها تسير بخطى هادئة نحو المصير المحتوم فالأقاليم يسودها الاضطراب والفوضى والفساد ، والولاة يطمعون ويشجعون على الاستقلال ونبذ طاعة الدولة . . . وفي قلب البلاد يختل الأمن ويضيع الاستقرار ، ويذهب الإخلاص ولم تنفع الحكمة أو السياسة . . . فكان الوزير لا يمضي إلاّ أياماً في الحكم حتى تقتلعه أيدي مجهولة لا يعرف لها جنسية . . . وهكذا يذهب ضحية المؤامرات .

وفي آخر المطاف عجّل بذهاب الدولة الفاطمية دخول العائلة الأرمنية « آل الجمالي » إلى حرم الأسرة الفاطمية بعد أن تزوّج الخليفة « المستنصر بالله » ابنة الوزير « بدر الجمالي » وهكذا تحكّمت بالبلاط وبالبلاد ... وأخيراً فرض « الأفضل »

خليفة هو ابن أخته وأبعد ثم قتل الخليفة الأصيل . . . وكل هذا اعتبر بداية النهاية .

ذكر التاريخ :

إنه في سنة ٤٤٤ هـ هبط منسوب مياه النيل . فارتفعت الأسعار في مصر ، واشتد الغلاء ، وفقدت المواد . وتفشّت الأوبئة والأمراض ، وكثر الموت في الناس ثم عادت من جديد هذه الموجة العارمة سنة ٤٤٦ هـ فاشتبه على الخليفة أمر رجالات الدولة وأصبح يشك بكل الناس .

وفي سنة ٤٥٣ هـ كثر تنقل الوزارات والقضاة ورؤساء الدواوين ، وكثرت الوشايات . وبرز الحسد والجشع . وعمّت السرقات والفساد. واختلّ الأمن والنظام بحيث أصبح الحكم للرعاع وللأراذل . ووقع الاختلاف بين صفوف القواد والجنود ، وضعف شأن الوزراء لقصر مدة حكمهم ، وخفّت الواردات وقلّ الإنتاج وساد البلاد موجة طاغية من الاستخفاف بالأمور ، ومما يذكر أن تلك الفترة التي استمرت ما يقارب العشرة سنوات سميت « الشدة العظمى » .

وفي سنة ٤٥٤ هـ وقعت الفتنة الكبرى بين العبيد والأتراك وذكر أن « أم المستنصر » كانت تمد العبيد بالأموال والسلاح ،

وبالرغم من هذا فإن الأتراك انتصروا وطردوا العبيد إلى الصعيد ، ونتج عن هذه المعارك أن حلّت فوضى دمّرت كل شيء ، وأصبحت البلاد تحت سيطرة شراذم من الجيش المنقسم على نفسه .

ومما تجدر الإشارة إليه أنه بعد اعتقال الوزير « اليازوري » دخلت الدولة في حالة من الاضطراب والفوضى ، وخرج الأمر من أيدي الخليفة وخاصة حينما تولّى الوزارة وزراء ضعاف كان أكثرهم لا يبقى إلاّ أياماً في الوزارة .

و « اليازوري » رغم خدماته للدولة الفاطمية فقد جمع كل مظاهر القوة والسلطان بفضل ثقة « أم المستنصر بالله » فكان محباً لحياة الرفاهية ميّالاً للترف شغوفاً بالفنون والتصوير ، وذكر أنه أمر بصنع خيمة بلغت نفقة اقامتها ثلاثين ألف دينار ، واشترك في صنعها مائة وخمسون صانعاً ظلّوا يصنعون فيها تسع سنوات وقد صوروا فيها كل حيوانات وطيور الأرض .

وكانت مائدته يحضرها كل يوم القضاة والفقهاء والأدباء وهي أغنى من موائد الملوك وكان « المستنصر بالله » يحضر كل يوم ثلاثاء على عادته .

وذكر أنه كان أنيقاً في ثيابه . . . وهذا البذخ استرعى الانتباه وآثار الشكوك حول استغلاله لموارد البلاد ... ففكّر في الهرب حينما شعر أن الخليفة بدأ يتغيّر عليه فجعل أمواله في سبائك من ذهب هرّبها ابنه إلى الشام وقدرت بثلاثة ملايين دينار .

أجل . . . إن الوزير « اليازوري » تمكن من إدارة دفة البلاد بمهارة ، واجتاز الأزمات الاقتصادية التي تعرضت لها البلاد ، وقضى على المجاعات التي كانت تطل بوجهها وبالنسبة للغلاء الداهم سنة ٤٤٦ هـ عندما هبطت مياه النيل ففي تلك الفترة لم يكن في مخازن الدولة إلاّ ما يكفي حاجة القصور ، وارتفعت الأسعار بشكل جنوني . واشتدّ الأمر على الناس ، وكان التجار قد انتهزوا فرصة إعسار الفلاحين وعدم قدرتهم على دفع الخراج ، فاشتروا منهم محصول القمح قبل أن يحل موسمه بسعر بخس وحملوه بعد حصاده إلى مخازنهم ، فأمر الوزير « اليازوري » بمصادرة هذه الغلال وعوض التجار عن كل دينار دفعوه دينار آخر . . . ولما جمعت الغلال في المخازن حدد ثمن « التليس » بثلاثة دنانير بعد أن كان بثمانية ثم قرر أن توزع على الخبازين في مصر والقاهرة ما يكفي حاجة الاستهلاك اليومي وبهذه الطريقة اجتاز المحنة بسلام .

وبعد « اليازوري » عادت الفوضى وقامت المجاعات واستمرت سبع سنين وصلت فيها البلاد إلى درجة من البؤس والفاقة لم يعرف مثلها في التاريخ . ولكن كل هذا لا يمنعنا من القول بأن الخدمات الوطنية مهما بلغت إذا لم يرافقها نزاهة وإخلاص فلا تعتبر خدمة فعلية .

وعندما جاء (بدر الجمالي) أعاد تنظيم الدولة وأنقذ الاقتصاد وقضى على الفساد ونظّم الشؤون المالية ، وذكر انه أطلق الخراج للفلاحين ثلاث سنين ، وفي السنة الرابعة جبي نصف الخراج ، وعمّر الريف ، وأصلح الترع والجسور حتى صلحت الأحوال واستغنى أهل الريف ، وشعر الفلاحون بالأمن والرخاء . ولأجل تأمين الرقابة الفعليّة أعاد تقسيم البلاد إدارياً إلى واحد وعشرين عملاً والأعمال إلى نواح والنواحي إلى كفور وقرى ، كما شجّع أصحاب رؤوس الأموال وذوي اليسار بالحضور إلى مصر ، فكثر ورود التجار في أيامه بعد أن كانوا قد نزحوا عنها أيام الغلاء، وكان لهذه السياسة الحازمة أثراً بارزاً في عودة الرخاء إلى البلاد فتراجعت الأسعار في عهده حتى بيع « تليس » القمح بربع دينار وتحسنت ميزانية الدولة تحسناً مرموقاً . وهكذا الحياة العلمية والفكرية .

وشجّع «بدر الجمالي » العمران وذكر أنه جدد جامع

« العطارين » بالاسكندرية ، وأنشأ جامع « المقياس » والجامع العتيق بأسنا ، وجامع « أمير الجيوش » بأعلى جبل المقطم ومشهد الإمام « الحسين » بعسقلان ، كما عمّر الجامع الطولوني والمسجد « النفيس » ومسجد « العمري » . وأدخل الفن البيزنطي على أبواب القاهرة الثلاث : باب زويله ، باب النصر ، باب الفتوح .



الاحداث الخارجية

قيام الدولة الصليحية الفاطمية في اليمن

في الجزء السابع من هذه الموسوعة ذكرنا دخول الدعاة الفاطميين إلى اليمن ونشاطهم . كما عددنا أسماءهم حتى آخرهم « سليمان بن عبد الله بن عامر الزواحي » الذي كان معاصراً للخليفة السابع « الظاهر لاعزاز دين الله » .

وبالنظر لأن الفاطميين في عهد الخليفة الثامن « المستنصر بالله » أقاموا دولتهم الكبرى في اليمن ، فإنه لمن الضرورة بمكان أن نأتي على الوقائع كاملة لهذه الدولة .

كانت اليمن في القرنين الرابع والخامس الهجريين في حالة من التدهور والتفكك ، ففي خلال تلك المدة استولى « الموالي » على الأقاليم اليمنية ، واستبدوا بالحكم ، وعاثوا فساداً وظلماً ، وبالرغم من أن « الحسين بن سلامة » تمكن

في مدة ولايته من الحفاظ على دولة «بني زياد» فإنّ استبداد «الموالي الحبشيين» بالحكم مكّنهم من تأسيس الدولة «النجاحية» في «زَبيد» سنة ٤١٢ هـ على أنقاض دولة «بني زياد» فكانت لهم «تِهامة» و «وزَبيد» . وكان استيلاؤهم على تلك الأمكنة من الأسباب التي حفزت العرب إلى الانتقاض وعدم الخضوع لدولة الأحباش . فكان من جرّاء ذلك أن تقطعت أوصال البلاد بعد موت «الحسين بن سلامة» وأصبحت كل منطقة تخضع لنفوذ أمير من الأمراء وعمّت الفوضى المناطق وأعلن العصيان في القلاع والحصون ، والاستقلال في المناطق والأقاليم . فكان «مخلاف جعفر» يضم : «جبلة» و «إب» و «العدين» و «المذيخرة» و «ذي سفال» . و «مخلاف المعافر» يضم : «تعز» و «جبا» وغيرهما . «ومخلاف الجنَد وحصن السمدان» لآل «الكرندي» ، وكانت لهم «مكارم» و «مغافر» وسلطنة «ظاهرة» ، أما «عدن» و «أبيَن» و «لحج» و «حضرموت» و «الشحَر» فقد استولى عليها «بنو معن» سنة ٤١٢ هـ . وتغلب «أسعد بن وائل» على «مخلاف» و «حاظه» ومن مدنه : «شاظح» . وامتلك «بنو عبد الواحد» «مخلاف يربوع» وأهم مدنه «الغَمد» و «بُرع»

وحصن « مستار » . واستولى « بنو اصبح » على حصون « حب » و « الشحر » و « السحول » ثم استولى على حصن « وصاب » ومخاليفها كانوا قوم من قبيلة « بكيل » ثم من « همذان » .

من هذا نرى أن اليمن لم تكن فيها وحدة سياسية تجمع شملها تحت لواء واحد . بل كانت إمارات صغيرة متفرقة يأكل القوي منها الضعيف ، أو بلغة أصح قل : إن السلطة كانت موزعة بين الأمراء والزعماء والمتباغضين المتنافرين ، وجميعهم لم يكن يربطهم ببغداد إلا رباط إقامة الخطبة للخلافة العبّاسي ، وضرب السكة باسمه وإعلان الولاء له ولو بالظاهر .

هذا . . . ومن الجدير بالذكر أنه من سنة ٤٠٥ هـ إلى سنة ٤٤٨ هـ عمّ الخراب « صنعاء » وغيرها من مدن وبلدان اليمن بسبب الخلافات والنزاع والظلم وفساد الأحوال ، وتوالى على العاصمة « صنعاء » الدمار وقلّ الخير ، وضعفت المدينة حتى قيل أن دورها أصبح عددها ألفاً بعد أن كان مائة ألف .

في هذا الجو المكفهر الحالك المضطرب . . . وفي تلك الأحوال السياسية المتقلبة ظهر على مسرح اليمن « علي بن

محمد الصليحي » رأس الأسرة الصليحية التي تنتسب إلى قبيلة « الأصلوح » من بلاد « حراز » وكان « علي » كما وصفه « ابن الجوزي » في كتابه « مرآة الزمان » :

« شاباً أشقر اللحية ، أزرق العينين . . . وليس في اليمن في ذلك الوقت من يماثله في ذلك » .

وكان والده القاضي « محمد الصليحي » مسلماً سنياً شافعي المذهب حسن السيرة مطاعاً في أهله وجماعته . لا يخرجون عن أمره ، ولا يعصون قوله . أما المؤرخ « عمارة اليمني » فقال :

كان « أهل حراز » أربعين ألفاً يدينون له بالطاعة .

نشأ « علي » نشأة طيبة . . . في بيئة عربية عريقة ، لها تقاليدها في الأخلاق الفاضلة والعادات الطيبة السمحة . . . وقد أورد « عمارة اليمني » في تاريخه :

إنه قد ظهرت عليه مخائل النجابة ، ودلائل الفضل والعزة وطموح النفس . ويروى أنه قام يحج بالناس على طريق « السراة » و « الطائف » خمسة عشر عاماً ، وكان الناس في أول ظهوره يقولون له :

« قد بلغنا أنك ستملك اليمن بأسره ويكون لك شأن ودولة » .

إن أولى فتوحات علي الصليحي كانت استيلاءه على بلدة «زُبيد» وفي تلك الفترة أحب الأمير الشاب ابنة عمه السيدة الحرة «أسماء بنت شهاب» الصليحية . وقد أورد المؤرخ «عُمارة اليمني» في تاريخه قصة زواجها فقال :

كان على باب «زُبيد» من داخل السور دار رجل من الحبشة يقال له : «فرج السحرتي» وكان من أهل الفضل والأخلاق الرفيعة والصدقات والمعروف ، فخرج ذات ليلة فمرّ برجل يقرأ القرآن ، فسأله عن العشاء . . . فأنشد قول الشاعر المتنبي :

«من علّم الأسود المخصيّ مكرمة
أعمامه البيض أم أخواله الصيد»

فأخذه الحبشي وطلع به إلى أعلى مكان في داره ، وأكرم مثواه واستخبره عن سبب قدومه إلى «تِهامة» فقال له «علي الصليحي» : ان لي عمّاً يقال له «شهاب» وله ابنة يقال لها «اسماء» قليلة النظير في الجمال ، معدومة المثل في العقل والأدب ، وقد خطبتها إليه ، فاشتطّ عليّ في مهرها ، وأمها تقول :

لا تزوجها إلاّ بعض ملوك «همذان» «بصنعاء ، أو

أمراء بني « الكرندى » بخلاف « جعفر » وقد استاموا عليّ من المال مبلغاً لا قدرة لي عليه . وأنا متوجه إمّا إلى « بني معن » « بعدن » وأما إلى « بني الكرندى » .

وهنا يقول المؤرخ « عُمارة » .

إن السحرتي دفع له مالاً جزيلاً أضعاف ما أدّى ، وجهّز العروسين بجهاز يحتفل به الملوك لعقائلهم ، وأعاد إلى عمه حيث زوّجه « أسماء » .

وذكر « الأزدي » في كتابه « الدول المتقطعة » قوله :

وكانت أسماء من أعيان النساء ، وكان « الصليحي » يثق بها ثقة عمياء لكمالها ، وقد كان يوكل إليها أمر تدبير الدولة ، ولم يخالفها في أغلب أمورها ، ويجلها إجلالاً عظيماً . وكانت إذا حضرت مجلساً لا تستر وجهها عن الحاضرين ، وفوق كل هذا كانت من حرائر النساء . وزاد على قوله :

وكانت من الكرم والسؤدد ، تمنح الجوائز السنيّة الجزيلة للشعراء ، والصلات الواسعة في سبيل الله تعالى وفي سبيل الخير والمروءة بحيث يمدح أولادها وأخوتها وبنو عمها بمفاخرها .

ونعود إلى ما قبل هذا فنقول :

لمّا انتقلت رئاسة الدعوة الفاطمية في اليمن إلى « سليمان ابن عبد الله الزواحي » شرع يلاطف ويجالس القاضي « محمد الصليحي » والد « علي » فكان يكثر من الترداد عليه بالنظر لرئاسته وسؤدده وصلاحه وعلمه ، وكان كلّما ذهب إليه يرى ولده « عليّاً » فيشاهد على محيّاه دلائل النجابة والذكاء والشجاعة ، فغرس فيه ، وهو دون البلوغ التعاليم الفاطميّة وما زال حتى استماله وجعل في قلبه العلوم والآداب والتفاني في المبادىء الفاطميّة .

ولمّا اطمأن « الزواحي » لرسوخ تعاليمه في فكر تلميذه « علي » أوصى له بخلافته واستحصل لذلك على موافقة الخليفة الفاطمي في مصر « المستنصر بالله » وبهذا تمكن « الزواحي » من إحراز أكبر نصر باهر بضمه إلى صفوف دعوته شاباً من خيرة شباب اليمن رجولة وغيرة وعلماً .

أجل . . . تمكن الداعي الفاطمي « سليمان الزواحي » بما أوتيَ من قدرة ولباقة وسعة علم ، وطلاوة في الحديث من استقطاب « علي الصليحي » وإقناعه بضرورة الانتساب إلى الدعوة الفاطمية ولم يلاقِ صعوبة في ذلك لأن علي ومنذ المرة الأولى أبدى رغبة صادقة وأظهر نية حسنة واستهوته المبادىء التي اعتنقها أستاذه وبذل كل شيء في سبيل دراسة هذه

المبادىء والتفوق في فهمها . . . أمَّا سليمان فقد أوصى له بمبلغ كبير من المال إضافة إلى الوكالة العامة التي تعطيه صلاحية الاستمرار والبقاء في رئاسة الدعوة .

ويقول المؤرخ « عُمارة اليمني » :

فأصبح « علي الصليحي » عالماً فقيهاً في الفلسفة ، مستبصراً في علم التأويل وقد أدّت معارفه إلى أن ينهج نهجاً جديداً ، وأن يسلك طريقاً يختلف عن طرق من سبقه من الدعاة الذين تولوا شؤون الدعوة في اليمن ، وهكذا اتخذ بادىء ذي بدء ميدان الحج حقلاً لغرس مبادئه وتنميتها ، وصار يحج بالناس عن طريق « السراة والطائف » نحواً من خمسة عشر سنة . . . فسار ذكره في البلاد على لسان الخاصة والعامة .

ومما يجب ذكره : أن هذه المدة الطويلة التي مرّت بين موت « الزواحي » إلى حين قيام « الصليحي » بثورته في « مسار » تقرب من الخمسة عشر عاماً ، وعلى الأرجح أنها كانت كافية لصقل « علي » وإنماء معارفه وتجاربه ، وتكوين جماعة تدين له بالطاعة والاحترام والإخلاص .

ولا يخفى أن طلاب السلطة يراعون دائماً جانب العامة ، فهم السواد الأعظم في كل مجتمع . ولهذا كان من الواجب

على كل طالب دنيا وزعامة أن يحسب لهم حساباً ، ويتقرّب إليهم بما يرضيهم ، ولما كان الدين هو جامعتهم الكبرى ، ومن أكبر أسباب سعادتهم ، تمسك الصليحي بالعقيدة الفاطميّة الإسلامية وبالمثل العليا ، فلم يكن يصارح أحداً إلاّ من يثق بإخلاصه وبعد أن يختبره ، ولم يجعل مبادىء دعوته وقفاً على الأمراء وعليّة القوم وأصحاب المصالح ؛ لأنه كان يعلم تمام العلم أن هؤلاء سيعلنون الحرب عليه ، وكان أن وجه اهتمامه إلى العامة والمتحمسين للدين وللسواد الأعظم من الرعية الذين بواسطتهم تجبي الأموال ، ومنهم يتألف الجيش فنفذ إلى صفوفهم وكسب ثقتهم وجذب قلوبهم ؛ وغرس في صدورهم الدين ... الدين وحده ... فليس يسيطر على العقول في تلك العصور سوى الدين ... وإذا اجتمعت السياسة والدين تمّت وسائط السلطة وخاصة في مجتمع عرف عن عامة أهله شدة تمسكهم بأهداب الدين ومحافظتهم على التراث القديم .

أجل ... عرف « علي الصليحي » هذا كله ، وعرف أيضاً أنه لا بد له من التطلع إلى آماله من زاوية خاصة ، فدأب على تحقيق طموحه بصبر وتؤدة ، وهو يعلم أن هذه الخطة كفيلة بنجاحه وتحقيق أغراضه ، وجاء موسم الحج في سنة ٤٣٨ هـ.وهذا العام كان بمثابة عهد جديد في إنجاح حركة

الصليحي حيث بايعه ستون رجلاً من قبيلة « همذان » وعاهدوه على الطاعة والموت ، وعلم كل واحد منهم أنه جندي يبيع نفسه بيع السماح عندما تأزف الساعة الرهيبة ، وتضافرت القوى على نصرة الدعوة بالأنفس والمال . ويعتبر كل هذا نصراً أكيداً للدعوة الفاطميّة ، وخاصة إذا عرفنا أن هؤلاء الذين بايعوه إنما كانوا في عزة ومنعة من قبائلهم . وكل هذا لا يتعارض مع ما ذكرناه من اعتماد الصليحي على فئة العامة . وبخاصة أن أكثرهم كانوا من قبيلة « همذان » القويّة العزيزة الجانب التي بلغت شأواً بعيداً في اليمن ، وهابتها جميع القبائل وحسبت لها حساباً ، وقد كان هذا الانضمام عاملاً كبيراً ومشجعاً لمن كان متردداً من المستجيبين . وباعثاً للكثيرين من القبائل الأخرى على الانضواء تحت لواء الدعوة الفاطميّة .

وهنا نستطيع أن نقول :

إن « علي الصليحي » بعد أن وصل إلى هذه النتيجة . وبعد إحرازه هذا النصر الأكيد تمكّن من تكوين جماعة مخلصة وإن تكن قليلة العدد . وقد أصبحت فيما بعد نواة لقوة كبيرة فكان أول عمل قام به هو استيلاؤه على حصن « مسار » وتعميره وجعله مركزاً لدعوته وقاعدة لحروبه . ولكن هذا المشروع كان يقتضي الحيطة والاستعداد ، ولهذا

أخذ يعد عدة الثورة . ويهيىء لها السلاح والرجال والعدة وساعدته الظروف إلى حد كبير وهكذا تمكن من تكوين جيشه من بطون « همدان » الذين اقتنعوا بصدق الوعد الذي بشروا به،واستقر في قلوبهم أن مواجهةالصعاب تقتضي الشجاعة والإقدام والإيمان بالله وبطاعة الخليفة « المستنصر بالله » الذي ما فتأ يعدهم بالنصر الأكيد .

وبذل الصليحي وأصحابه جهداً كبيراً في سبيل جمع الكلمة وتوحيد الهدف ، فتمكن بفضل ما أوتيه من القوة والذكاء من التغلب على كل ما اعترضه . وأخيراً جعل أتباعه يعتقدون أنهم انما يحاربون اعلاءً لكلمة الله ، وليس لأمر من أمور الدنيا ، وهكذا كتب له التوفيق . وكان في الوقت ذاته على اتصال بخليفة مصر الفاطمي « المستنصر بالله » يطلعه على كل شاردة وواردة ، وأخذ رأي المخلصين من أعوانه ، وعاهدهم على الوفاء بتطبيق سنن العدالة . وفي هذه الفترة البدائية من عمر دولته تمكن من عقد اتفاق مع « الهمدانيين » يقضي بأن يصلوا إليه في يوم معلوم .

وعندما شاع الخبر في أرجاءاليمن بأنه يستعد للثورة والقتال ، وبأنه ينتظر وصول مساعدات وتوجيهات الخليفة الفاطمي « المستنصر بالله » ازدادت نقمة الاعداء عليه وعلى أتباعه ،

فوثب « ابن جَهْوَر » صاحب « لعاب في حراز » على أتباع علي المقيمين في ناحيته فأصلاهم ناراً حامية وأسر القاضي الفاطمي « لملك بن مالك » وعدداً كبيراً من قومه ؛ فضاق الأمر على « الصليحي » وكتب إلى « المستنصر بالله » يطلب إليه الموافقة على القتال ، وكان يعتقد أنه لا يمكن أن يعارض الفكرة بحال من الأحوال لاسيما وان الدعوة لابد لها من تضحية وبذل دماء ؛ وعندما وافته الموافقة أرسل إلى أتباعه اينما كانوا في اليمن يحثهم على القدوم إليه ، وأخذ من جهة ثانية يبتاع العدة والعدد ، فخف لمقابلته كبار أهل الدعوة في نواحي « حراز » وكلهم يستعد لخوض المعركة . كما وافاه من اراضي « يام » من همزان ونواحي صنعاء وبقاع حمير . وبعد أن تم حضورهم أطلعهم على خطته وأخبرهم بعزمه على احتلال حصن « مسار » وما يجاوره . . . وتدفقت في هذه الاثناء الأموال والمساعدات والغرض منها تمويل الثورة وشراء الأسلحة .

ولما تمت الاستعدادات والتجهيزات أرسل أربعين رجلاً من « هوازن » وأمرهم أن يسيروا إلى « مسار » وان يلزموا ذروة الجبل ، ثم يولوا وجوههم بعد ذلك شطر « صعفان » . بعد أن علم ان أهل « مسار » قد تأهبوا لقتاله وحصنوه من كل

جهة ، وقد علم « الصليحي » ذلك عن طريق بعض أعوانه الذين تسللوا إلى قمة « مسار » ووقفوا على استعدادات الأعداء ، وهنا رسم خطته فداهم الجبل المنيع واستولى على قمته وهي من أهم المواقع الحربية في اليمن .

وفي سنة ٤٣٩هـ. تقدم في سيره فوصل إلى « عبرى سهام » وهناك طمع أهل « مسار » في محاربته في هذا المكان . . . ولكنهم لم يتمكنوا . . . فاتجهوا إلى قمة الجبل للاعتصام فيها ، فوجدوا أهل « هوازن » قد ملكوها ، فاضطروا إلى الهرب ، فصعد « الصليحي » وأتمّ احتلاله للجبل ، ونشر الأعلام الفاطميّة في كل مكان دون أن يواجه أية مقاومة ولكن لم ينتصف ذلك اليوم حتّى أحاط به عشرون ألف محارب جاءوا من مختلف الجهات وأنحاء البلاد لقتاله ، وطلبوا إليه النزول ، وهنا تجلّت حكمته ومرونته وبعد نظره بالامور والسياسة . . . فقال لهم :

اني لم أقدم على هذا الأمر إلاّ لكي أحرس لكم الجبل خوفاً من أن تأتي قوة خارجية فتستولي عليه ، والآن فإن شئتم نزلنا وتركناه وإن شئتم كنا له الحراس الأمناء . . . فقنع الرجال المحاربون وفوضوا إليه المحافظة عليه وانصرفوا عنه... وفي تلك الأثناء عادت رسله من مصر حاملين أوامر الخليفة

« المستنصر بالله » بإعلان الدولة الفاطمية في اليمن . . . فقرأ الكتاب على أتباعه ، وأخذ نفوذه يزداد ... وبدأت الأموال والمساعدات ترد إليه من جميع الجهات . وهذا ما جعله يقوم بعمارة « مسار » ويجعل له الدروب والبيوت .

ونورد هنا المنشور الذي أذاعه « الصليحي » على أهالي « حراز » بعد استيلائه على جبل « مسار » .

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله الذي أوري زناد الحق ، ورفع عماد الصدق بالذين أكمل بهم الحجة على الخلق ، وأنارهم ما بين الغرب والشرق . . والهداة إلى الخير والادلة . . الدعاة إلى اشرف المنهاج والملة . . خلفاء أنبيائه وأمنائه وأصفيائه ، وسلالة رسله من لدن آدم ووصل نظامهم ، وأعلى مقامهم ، وفتق بالنور أيامهم ، ونشر بالعدل اعلامهم . فهم أعلام الدين ، والدعاة إلى الحق المبين .

وصلاته على من ختم به الرسالة . وفتح بالائمة من عقبه أبواب الدلالة ، سيدنا « محمد النبي » ، وعلى أخيه ووصيه « علي » ، وعلى الائمة من نسل الحسين الزكي ، ورثة التنزيل ، وخزنة التأويل .

وأفضل صلاته ، وأنمى تحياته وبركاته على وارث علمهم ، والقائم من بعدهم بقية السلف وخيرة الخلف . . مولانا « محمد » « أبي تميم » الإمام « المستنصر بالله » أمير المؤمنين .

أمّا بعد . . . يا أهل حراز . . . ألهمكم الله رشدكم ، وجعل الجنة قصدكم . . . إني لم أطلع إلى « حصن مسّار » متجبراً باغياً ، ولا متكبراً على العباد عاتياً ، ولا أطلب الدنيا وحكامها ، ولا طالباً أملك نمو نماءها وطعامها ، لأن لي بحمد الله ورعاً يحجزني عمّا تطمح إليه النفوس ، وديناً أعتمد عليه . وإنما قيامي بالحق الذي أمر الله عز وجل به ، والعدل الذي أنزله في محكم كتابه ، أحكم فيه بحكم أوليائه ، وسنن أنبيائه ، وأدعو إلى حجته والقائم بفرضه . . . لست من أهل البدع ، ولا من ذوي الزور والشفع الذين يعملون في الدين بآرائهم ويحكمون بأهوائهم ، بل أنا متمسك بحبل الله المتين . عامل بما شرع الله في الدين وداعٍ إلى أمير المؤمنين . . . لا أقول إلاّ سدداً . ولا إكراه في الدين أحداً . . . فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه . ومن ضلّ فإنما يضل عليها ، وما الله يريد ظلماً للعباد .

واعلموا يا أهل « حراز » إني بكم رؤوف ، وعلى

جماعتكم عطوف للذي يجب عليّ من رعايتكم وحياطتكم ، ويلزمني من عشرتكم وقرابتكم ... أعرف لذي الحق حقه . ولا أظلم سابقاً سبقه ، وانصف المظلوم واقمع الظالم الغشوم وأبث فيكم العدل ، وأشملكم بالفضل فاستديموا ذلك بالشكر ، ولا تصغوا إلى قول أهل الكفر فيحملوكم على البغي والعدوان ، والخلاف والعصيان ، والكفر بالإنعام والإحسان .

إنّ كتابي هذا حجة عليكم ومعذرة إليكم ... والسلام على من اتبع الهدى ، وتجنّب أمور الردى .

والحمد لله على ما أعاد وأبدى ، وصلواته على من أرشد به من الضلالة وهدى سيدنا محمد ، وعلى آله الأئمة الشهداء ... وسلم تسليماً ... وحسبنا الله ونعم الوكيل .

ممّا لا ريب فيه أن ازدياد نفوذ الصليحي ، وانتشار أمره بهذه السرعة استفز جماعة من زعماء اليمن ، فاعلنوا خوفهم من تلك الانتصارات التي يحرزها الصليحي في كل يوم ، فقام « جعفر بن القاسم بن علي العياني » صاحب « صعدة » في جمع كبير من أصحابه وهاجم حصن « الأخروج » وقاتل أهله ، وكان عليه « الحسين بن المهلهل » من أصحاب الصليحي وجماعة من « حمدان » و« بني شهاب » .

وانتهز هذه الفرصة أيضاً « جعفر بن العباس الشاوري » صاحب مغارب اليمن الأعلى ، فقام على رأس جيش كثيف من « حراز وكرّار » وغيرهما وقصد « عبْرى » أسفل جبل « مسّار » وأراد الصعود إليه ، فنزل أنصار الصليحي يدافعون عن بقائهم وعن نصرة مبادئهم ، لأن الانتصار معناه البقاء لدولتهم الفتيّة ، وأما الهزيمة فمعناها الفناء التام والقضاء المبرم .

ولمّا تكاثر القوم على جيش « الصليحي » خشيَ الهزيمة ، وما يترتب عليها من سوء العاقبة ، فنزل بنفسه ، ومن بقي معه من القوى الاحتياطية ، واستمد من الحرج قوة ، فشدّ بذلك من عزم أتباعه ، وحمي وطيس القتال ، وأخيراً ربح الجولة ، أما جيش « ابن عبّاس » فقد لاذ بالفرار مغلوباً على أمره ، ولكنه ما لبث أن عاد ثانية بقوة أكثر عدداً ، وكان يطمع في النصر هذه المرة أيضاً ، ولكن تدابير « الصليحي » القتالية مكنته من السيطرة على الموقف وقتل « ابن عباس » وأكثر من معه من الأتباع . . . وغنم « الصليحي » وأصحابه الكثير من السلاح والعدة والأمتعة ، فقوي بذلك مركزهم وازداد نفوذهم ، وارتفعت روحهم المعنوية وخـافهم من كان يترقب من القبائل نتيجة لهذه المعركة ، وفي هذه الفترة اضطرّ الشريف « جعفر بن القاسم » عند سماعه

بالأنباء أن يترك حصن « الأخروج » وينجو بنفسه . وكانت هذه التجربة اختباراً لقوة الصليحيين وتعاونهم وتمسكهم بمبادئهم ، كما أن شخص الصليحي وجلال قدره وحسن بلائه في تأييد أمره أسكن النفوس الغضبى ، فسار بالأمر قدماً واستولى على « حضورْ » وأخذ حصن « بتاح » وهنا خاف أهل « حراز » النزال فقرروا الدخول في طاعته إلاّ « ابن جهورَ » فقد صمّم على الاستمرار في المكابرة واعتصم في حصن « لهاب » ولكن الصليحي كلّف القائد الفاطمي « عامر بن سليمان الزواحي » فصعد إلى جبل « شبام وبيت عناد » ومعه جماعة من بني « قليد وهوازن وبني الحجري » ثم وصل « أحمد بن المظفّر الصليحي » وجماعة من الحجازيين — وفيهم عباس بن المكرم — فعمّروا داراً في قمة جبل « شبام » كما عمّروا جبل بيت «عناد » استعداداً لمقاومة « ابن جهورَ » وبعد أن تحصنوا في هذه الناحية ، اتجه جيش « الصليحي » لمحاربة « ابن جهورَ » في « لهاب » فضيقوا عليه الحصار ، وفكّوا أسر جماعة كبيرة من أصحابهم ومنهم القاضي «الملك بن مالك » ولكن « ابن جهورَ » استمر في عناده ، وتمكن من أن يؤثر على أتباعه ويقنعهم في الاستمرار في المقاومة ، ولمّا ضعف جيشه ، ورأى أن مصيره إلى الهلاك ،

استعان « بنجاح » في « زُبيد » وكانت علاقته مع الصليحي حسنة ، فتوسط بالصلح ، ولكن وساطته لم تثمر ، وكان أن تمادى « ابن جهوَر » في بغيه ، فاضطر الصليحي إلى محاصرة حصن « زبار » حتّى سقط ، وهنا رضخ « ابن جهوَر » وسلّم نفسه إليه مكرهاً في « مسّار » فأنزله الصليحي في ضيافته وأحسن إليه . ويدل تسامح الصليحي مع عدوه على نبله وعراقته وطيب محتده ، فقد كان من المفروض والمنتظر أن يأمر بقتل « ابن جهوَر » الذي تسبّب في إقلاق راحة الصليحيين مدة من الزمن حتّى استمات في سبيل الوصول إلى النصر وتحريض الحانقين والناقمين عليهم .

بالرغم من هذا كله وجد الصليحي أن المعاملة الحسنة أجدى وأنفع في مثل هذه المواقف ، وآثر أن يكسب ثقة الناس بالمزيد من أعمال الخير ، وقد تحققت سياسته تلك فانقسمت منطقة « لهاب » فيما بينهم إلى فريقين : فريق انضمّ للصليحيين وقدّم إليه المساعدات المالية ، وفريق استمر في عداوته،مما جعل الصليحي يرد كيدهم إلى نحورهم ويجتذب إليه الفريقين أخيراً . ولم يتوقف عند هذا الحد ، بل نزل إلى « عبرى دعاس » وعقد مؤتمراً من جميع أهل « حراز » حذرهم فيه من الخلاف عليه والشقاق ، وأعلن بدء قيام

الدولة الفاطميّة ، كما وعدهم بحسن السياسة والقيام بالمحافظة على الشرع .

وبدأ الصليحي حكمه على الأسس التي أعلنها وتقدّم في تنفيذ سياسته المرسومة بخطى حازمة سريعة؛ وكان من ضمنها اتباع سياسة المهادنة إزاء أمراء اليمن وأصحاب الدويلات المجاورة — إذا نفعت هذه السياسة — وإلاّ فليس أمامهم إلاّ الحرب وإخضاعهم بالقوة ، ولما ملك الصليحي جبال « حراز » وما يجاورها ، خشي ملوك « تُهامة » أيضاً بأسه الشديد . وتملكه الحصون والبلدان . وخاصة حصن « حضور » وما يجاورها ، وهنا بدأت التقولات والإشاعات . . . وكان لا بد له من مهادنة « أبي حاشد » صاحب « صنعاء » كما هادن أباه « يحيى بن إبراهيم الصحارى » من قبل . فلمّا توفي يحيى سنة ٤٤٠ هـ أرسل الصليحي بعض أصحابه وبني عمه إلى « صنعاء » لتعزيته في أبيه والإحسان إليه . ولكن « أبا حاشد » اعتبر تطلعات الصليحي هذه تدخلاً في أموره فساءت العلاقة بينهما أخيراً مما أدى إلى قيام حرب بين الفريقين . . . وقد انتهت تلك الحرب بمقتل صاحب « صنعاء » واستيلاء الصليحي عليها وبوصوله إلى هذه المرحلة أقبل الناس على خطب وده والانضواء تحت رايته والدخول في طاعته .

ومهما يكن من أمر

فإن الإمام الزيدي « الناصر الديلمي بن الحسين بن محمد ابن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب »، وكان قد وصل من « الديلم » إلى اليمن سنة ٤٣٧ هـ.لإعلان المذهب الزيدي ، فانضمت إليه قبائل كثيرة في « صعدة » ومنها سار إلى « صنعاء » وملكها ، فطرده « يحيى بن أبي حاشد » والشريف « جعفر بن الإمام منصور العياني » فعاد إلى « ذي أبين » .

أمّا « ناصر » هذا فكان يعد من العلماء الأجلاء وله تفسير للقرآن في أربعة مجلدات . وقد اعتبر « الناصر » استيلاء الصليحي على « صنعاء » يشكل تهديداً له ولغيره من زعماء اليمن ، فكان أن اتصل « بنجاح » صاحب « تُهامة » وطلب منه إخراج الصليحي من « صنعاء » وهذه البادرة التي ظهرت من « الناصر » كانت مدعاة لغضب الصليحي ، فسيّر إليه جيشاً حاربه ثم قتله أخيراً في موقع « نجد الجاح » ببلاد « رداع » وقد مثّلوا به ثم حمل رأسه إلى « صنعاء » حيث دفنت جثته في « أقيف » ببلاد « عنس » .

وفي هذا العام ثار الهمدانيون وهم أكبر القبائل التي دانت للصليحيين ، وفكروا بخلع طاعتهم ، والخروج على حكمهم .

بالرغم من أن الصليحي كان لا يسير فيهم إلاّ سيرة الحق والعـــدل ، فاتصلوا بالشريف « القاسم بن جعفر بن الإمام منصور العياني » واستنهضوه واتباعه فاستجاب لطلبهم ، وخرجوا جميعاً سنة ٤٤٨ هـ.لغزو الصليحي ، فتقابل الجمعان بالقرب من قرية « الهرابة » ببلاد « حاشد » فردهم الصليحي ، وحاصر الشريف ومن معه بأحد الحصون ، ونصب عليه المنجنيق لكن أتباع الشريف دافعوا دفاع الأبطال ومات أكثرهم لنفاد المؤونة ، وعند ذلك اضطرّ الشريف إلى أن يسلم نفسه للصليحي فأكرمه وخلع عليه ، ولم تكن سياسة الصفح التي اتبعها الصليحي في هذه المرة سياسة هوادة أو تردد ، بل قصد منها تسكين الثارات ، لأن في تسكينها الأمن والخير والسعادة والاستقرار لليمن ولليمنيين .

وتمشياً على هذه السياسة القائمة على المهادنة والملاطفة كان الصليحي يلاطف القائد « نجاح » صاحب الدولة الحبشية في « زُبيد ـ تُهامة » التي حملت لواء الدعوة الإسلامية السنيّة في اليمن بعد دولة « بني زياد » ولكنه كان يدرك أن دولته الفاطمية الفتيّة لا يمكن أن يكون لها شخصية معنوية قويّة وكيان متين إلاّ إذا قضى على أكبر منافسيه وهو « نجاح » وكان الصليحي يلاطفه حتى قويّ مركزه ودانت له معظم

الجزيرة اليمنية ، ثم بدأت العلاقات تتوتر بين الطرفين بفضل مساعي الإمام الزيدي « أبي الفتح » صاحب « صَعدة » الذي أفسد بين الصليحي وصاحب « زُبيد » فحلّت الوحشة بعد الأنس والجفاء بعد حسن الصلة ، فأرسل « نجاح » جيشاً كثيفاً لمحاربة الصليحي والتقى الفريقان في خلف صعفان في « الجنة » المتصلة « بتهامة » ودارت بين الفريقين معارك طاحنة ومصادمات عديدة ، وكانت الكرة الأخيرة للصليحي وجيشه من العرب على جمع الأحباش .

ويذكر التاريخ :

إن الأحباش عادوا فاجتمعوا سنة ٤٥٠ هـ. في « ابن طرف » وكان معهم جميع أمراء الأحباش وكان جيشهم يتألف من عشرين ألفاً ، فسار إليهم الصليحي في ألفين وسبعمائة فارس وهنالك التقى الجمعان « بالزرائب » فدارت الدائرة على الأحباش ، ولم يسلم منهم إلاّ ألف لجأوا إلى جبل « يعرف » « بالعكوتين » فوق مدينة « الزرائب » .

وفي سنة ٤٥٢ هـ. مات « نجاح » « بالكدراء » . ويروى أن الصليحي هو الذي دبر قتله ، على يد جارية حسناء كان قد أهداها إليه فيما مضى لتحقيق هذا الغرض . . . على انّ أكثر المؤرخين يؤكدون أن موت « نجاح » كان طبيعياً ،

ولكن هذا الموت لم يكن حداً فاصلاً بين الطرفين ، بل على العكس كان بداية لعهد نزاع طويل بين الصليحيين والنجاحيين ، فقد تسلّم الزعامة بعد « نجاح » ولده « سعيد » ولكن الصليحي أظهر براعته العسكرية بتأجيل أمر النجاحيين ، وقرر أن يقضي أولاً على الفوضى الضاربة أطنابها في الدويلات في اليمن الأسفل ، وبعدئذٍ يتجه إلى عدوه الرئيسي ، وكل هذا حتّى لا تشغله جبهة أخرى في داخل البلاد وفي هذا تتجلّى حكمته ورأيه السديد ، فزار « مسّار » و « صنعاء » زيارة قصيرة ثم قصد بجيوشه اليمن الأسفل ، واستولى عنوة على جبل « صبر » وعلى بلاد « بني الكرندى » وملوك « المعافر » وحصن « الدماة » كما استولى على بلاد « الحسين التبعي » صاحب حصن « حبّ » و « بعُدان » و « السحول » و « الشواني » ، ودخل « الجند » وهي يومئذٍ مدينة اليمن الأولى ، ولم يكن في اليمن أشهر منها ، ومن مدينة « صنعاء » منذ الجاهلية حتّى عهد الصليحي . ثم سار إلى « عون » واستولى على بلاد « بني معن » الذين كانوا يملكون « عون » ثم هادنهم أخيراً وسلّم إليهم بلادهم بعد أن بذلوا له السلم وأعلنوا الخضوع له والائتمار بأمره .

ثم قصد بعد ذلك « تهامة » وسار إلى « زبيد » وافتتحها

واحتل « التهائم » كلها وطرد منها أولاد « نجاح » الذين فروا إلى جزيرة « دهلك » في البحر الأحمر ، واستقروا فيها . ويذكر التاريخ :

إنه بعد هذه الفتوحات سار في الناس بالعفو والصفح ورفع السيف ، وبسط العدل ، ولاذت به العرب ولا سيما في بلاد « تهامة » حيث كان العبيد يتحكمون بهم ويستطيلون عليهم أيام القائد « نجاح » .

وهكذا طوى « الصليحي » بلاد اليمن طيّاً وأرضخها جميعاً لنفوذه وسلطانه ، وافتتح كل ما كان مغلقاً في وجهه ، فلم يأتي عـــام ٤٥٤ هـ إلاّ وقد ملك الأقطار اليمنية كافة قلاعها وحصونها ومدنها وسهولها وجبالها وامتد نفوذه من « مكة » حتى « حضرموت » وتمنّعت عليه « صعدة » بعض التمنع ، ولكنه ما لبث أن قتل « القائم » وملكها وبذلك تمّت أمور الدولة واستقرت وتوحدت كلمة اليمن .

وجعل الصليحي « صنعاء » عاصمة لدولته وبنى فيها عدة قصور ، وأسكن معه جميع ملوك وأمراء اليمن تحت علم واحد ، ورأت اليمن بعد قرون طويلة وحدة البلاد في ظل حكم عادل قوي يقوم على الحرية والحق والعدالة ، وكل

هذا كان من برنامج « الملك علي الصليحي » الذي أخذ يوطد دعائم ملكه على هذا الأساس ، ويرسي قواعده وينظم سياسة البلاد وإدارتها ، ويولي في المناطق والحصون من يرتضيه ويثق به من الولاة والحكام والقواد ، فولّى على « تهامة » « الأمير أسعد بن شهاب الصليحي » صنوَ السيدة الحرة « أسماء بنت شهاب » زوجته ، وهكذا دخـــل « زُبيد » سنة ٤٥٦ هـ.وسكن « دار شحّار » فأحسن السيرة في الرعية ، وأذن لأهل السنّة في إظهار مذهبهم ، كما أمرهم بذلك الصليحي ، وعامل أيضاً أرباب الدولة النجاحية بالحسنى .

وكان الصليحي قد أقسم ألاّ يولي « التهائم » إلاّ من يزن له مائة ألف دينار ، ثم ندم على ذلك حينما أراد أن يوليها « أسعد بن شهاب » وهنا وزنت له زوجته الملكة « أسماء » عن أخيها المال المطلوب . . . فقال لها زوجها :

من أين لك هذا ؟ فقالت :

من عند الله . . . ان الله يرزق من يشاء بغير حساب » فتبسّم وعرف أنه من خزائنه . . . فقال :

هذه بضاعتنا ردّت إلينا . . . فقالت : وغيرُ أهلنا ونحفظ أخانا » .

وعيّن الصليحي أيضاً ابنه « الأمير المكرّم » على « الجند » وما يليها ، كما عيّن أخاه « عبد الله » على بلدة « ذي جبلة » فأخذ يصلحها ويعمرها. وممّا تجدر الإشارة إليه أن الصليحي لم يكن اهتمامه مقصوراً على اليمن فحسب ، بل كان ينظر إلى ما وراء حدود بلاده وبالأخص « الحجاز » وهي أقرب البلدان إلى اليمن ، وأهمها في نظر المسلمين ، وأحوجها إلى الاستقرار والأمن ، وكان يتفانى في سبيل الدعوة الفاطميّة والخليفة المستنصر بالله ، فكان يجيب أوامره طائعاً ، ويؤديها متبركاً برضاه ، معتزاً بثقته ، فلمّا خرجت « مكة » عن طاعة المستنصر بالله وقطعت الخطبة التي كانت باسمه سنة ٤٥٣ هـ أرسل الصليحي إلى واليها « شكر الحسني » يحذره مغبة خروجه عليه ، وتبودلت بين الطرفين مراسلات تنطوي على الكثير من التهديد والوعيد ولما عيل صبر الصليحي وضاق صدره طلب من الخليفة المستنصر بالله أن يأذن له بإزالة الشريف شكر من مكة ؟ فأجابه المستنصر بالله بكتاب ينهاه عن سفك الدماء بالحرم الشريف قائلاً :

«إيّاك أن تلقى الله بدماء بني فاطمة »فأطاع الصليحي أمر الخليفة الفاطمي مكرهاً على ما كان يجري في البلاد المقدسة .

ثم أنه توجه إلى « مكة » أخيراً سنة ٤٥٤هـ. وقضى

فريضة الحج ومعه أمراء اليمن وزعماؤها . فانتزعها من « بني أبي الطيب » ، ولمّا توفي « شكر » خلفه « ابن جعفر » رئيس « الهواشم » وزوج ابنة « شكر » فشنّ حرباً على السليمانيين وأخرجهم من بلاد الحجاز ، واستقل بإمارة « مكة » وأقام الخطبة للخليفة المستنصر بالله ، ولكنه لم يعمل على الاحتفاظ بسيادة الفاطميين على مكة ، لأنه لم يلبث أن انحرف عنهم ، وأمر بذكر اسم الخليفة العباسي « القائم » .

ولمّا انتهى الصليحي من فريضة الحج أخرج من الأموال والصدقات للبيت وللحرم وللمناسك ما يفوق حد التصور ، وعامل الناس بالحسنى ، وأظهر العدل والإحسان ، وعمل على استمالة الناس إلى جانبه بما امتلك من الأموال . فطابت قلوبهم ورخصت الأسعار وأمنت الحجاج أمناً لم يعرف مثله من قبل حتى أنهم كانوا يعتمرون ليلاً ونهاراً وأموالهم محفوظة ورحالهم محروسة ، ولم تقف أعماله هناك عند هذا الحد ، بل أنه شنّ حملة تأديب على القبائل الثائرة التي كانت تعتدي على الحجاج ، وردّ « بني شيبة » عن قبيح أعمالهم وأفعالهم مع الحجّاج ، وردّ إلى البيت من الحلي والأثاث ما كان « بنو الطيّب » الحسينيون قد أخذوه عندما تملكوا بعد « شكر » وكانوا قد عرّوا البيت والميزاب ، ثم أخذ يصلح ما أفسده

الأشراف في هذه البلاد ، وتحمّل ديات القتلى من ماله الخاص ، فكسب بحسن سياسته وإدارته رضا الخليفة المستنصر بالله ، وثقة كثير من البلدان الإسلامية المجاورة لما قدمه من خدمات للحجاج عامة ، وما قام به من كسوة الكعبة بالديباج الأبيض ، وما جلبه من الأقوات إلى أهالي تلك البلاد . . . وفلهجت الألسن بالدعاء له في كل مكان والثناء على كرمه وأفعاله .

ومهما يكن من أمر فإنّ الصليحي أقام في الأراضي المقدسة حتى يوم عاشوراء سنة ٤٥٥ هـ يخطب للخليفة المستنصر بالله ، ويعيب على العباسيين إهمالهم شؤون الدين وفي أثناء إقامته في « مكة » راسله الأشراف الحسينيون المغلوبون على أمرهم ، طلبوا منه أن يختار من بينهم والياً عليهم لكي يبذلوا له الطاعة ، فأقام على البلدة واليها السابق « محمد بن جعفر » وأعطاه مالاً وسلاحاً ، وأصلح بين العساكر ، فدلّ بكل هذا على حسن سياسته لأنه لم يتعنت مع الحسينيين ولم يظلمهم وآثر أن يحسن معاملتهم ليكسب ودهم وخاف أن يترك البلدة قبل أن تستقر الأمور فيها ، فتقع في أيديهم ، ويستمرون في عنادهم وخلافاتهم ، فاستعمل معهم اللين ، وبذلك نجح في تحقيق سياسته موقتاً ، وقفل بعد ذلك عائداً إلى « صنعاء » .

ومهما يكن من أمر فإن الشريف « محمد بن جعفر » أمير « مكة » لم يعمل طوال عهده الذي بدأ من سنة ٤٥٣هـ. إلى سنة ٤٨٧هـ. على تنظيم الأمور في الأراضي المقدسة ، وإقرار الأمن بها بالرغم من المساعدات المالية التي كانت ترد إليه من الخليفة العباسي أحياناً ، ومن الخليفة الفاطمي أحياناً أخرى ، بل أساء التصرف والسيرة فيها : وأصبح الحجاج في أواخر أيامه لا يأمنون على أنفسهم ، كذلك لم يبدِ من هذا الشريف ما يشعر برغبته في الاستقلال عن الخلافة العباسية أو الفاطمية ، بل دان لكل منهما بالطاعة في فترة متقاربة حتى وصفه « أبو المحاسن » في كتابه « النجوم الزاهرة » :

« بأنه كان متلوناً تارة مع الخلفاء العباسيين العراقيين ، وتارة مع الفاطميين المصريين ، ويظهر من هذا أنه كان يلعب بمصالح البلاد المقدسة ، ومصالح المسلمين جرياً وراء المال . وهناك من يقول :

« إن هذا التلون يعود إلى دوافع سياسية وأخرى اقتصادية ».

هذا . . . ومن الجدير بالذكر أنه بعد عودة الصليحي إلى « صنعاء » شكر له الخليفة الفاطمي المستنصر بالله حسن صنيعه وامتثاله لأوامره بعدم إراقة الدماء في الأراضي المقدسة .

ولكن الشريف « محمد بن جعفر » رجع إلى ما كان يفكر به ، وخرج على من أحسن إليه ، فهاجم مدينة « الحلى » واستولى على ما فيها من متاع للصليحي ، ولم يكتف بذلك بل عمل على إثارة الفتن وتهييج العامة ، وفي أثناء غيابه عن اليمن أيضاً قامت الفتن والثورات في بعض أنحاء المملكة ، فثار عليه قوم من « عَنْس وزُبيد » وأظهروا الخلاف والعصيان ، والتفوا حول رجل منهم ، ثم التجأوا إلى جبل « مسْوَر » وما جاوره من الجبال ، وعندما عظم فسادهم قصدهم الصليحي واقتحم معاقلهم عنوة حتى دانوا له بالطاعة .

وأخيراً :

عاد الملك « علي الصليحي » للتفكير في شؤونه الخاصة وأمور الملك . . . ومنها ولاية العهد . . . وكان ولده الأكبر « الأمير محمد » قد بلغ مبلغ الرجال ، فرغب في أن يوليه ولاية العهد لينوب عنه في الملك في حياته وبعد مماته ، فكتب إلى الخليفة المستنصر بالله سنة ٤٥٦ هـ يخبره بما استقر عليه رأيه ، فورد إليه سجل الخليفة بالموافقة وأعطاه لقب : « الأمير الأعز شمس المعالي » وأذن له أن يعلن هذا اللقب على منابر اليمن ، وفي ذلك الوقت توفي « الأمير أسعد بن شهاب » حاكم « زُبيد » وما يتبعها . فرأى الصليحي أن

يولي ابنه « الأمير محمد » ما كان عليه خاله ، وأعطاه صلاحية التصرف في شؤونها لكي يختبره ويدربه على الحكم .

وصل « الأمير محمد » إلى « زُبيد » سنة ٤٥٧هـ. وبعد خمسة أشهر من حكمه سار والده ووالدته وولدهما الثاني « المكرّم » سنة ٤٥٨هـ. إلى « زُبيد » وأقاموا في ضيافته مدة قصيرة ، وبعدها عزموا إلى العودة إلى « صنعاء » فصحبهم مودعاً وكان يريد أن يبلغ معهم « الغَمد » ولكنه لمّا وصل إلى « المصقع » أصابته الحمّى فأمره والده بالرجوع إلى « زُبيد » فعاد إليها ولكن المرض اشتد عليه ، وكان أن مات سنة ٤٥٨هـ. وله من العمر سبع وعشرون عاماً ، ولما وصل الخبر إلى والده ، وهو على وشك الطلوع إلى حصن « مسّار » مع الملكة « أسماء » اشتد عليهما الحزن ، وقفل الملك « علي » عائداً إلى « زُبيد » بجمع من أهله وأركان دولته فدفن ولده وجعل قبره بجانب ضريح خاله « الأمير أسعد بن شهاب » .

وبعد عودته إلى صنعاء ، كان عليه أن يلقى خبر وفاة ابنته « ميمونة » التي ماتت غمّاً على أخيها . . . وقبل أن تصل رسل الصليحي إلى مصر لإعلام الخليفة بالنبأ أرسل إليه سجلاً يعزيه بوفاة ولي عهده وبالوقت نفسه يعين « الأمير المكرّم » وليّاً للعهد .

في تلك الفترة أوفد الصليحي إلى القاهرة وفداً مكوناً من : القاضي عمران بن الفضل ، ونجيب بن عفير ، ويوسف بن محمد ، وعنتر بن غشم يحملون للخليفة رغبة الصليحي بزيارة القاهرة والتشرف بالمثول بين أيدي الخليفة ، ولكن المستنصر بالله رفض طلبه ، وأشفق عليه من بعد المسافة ومشقات السفر .

ويذكر التاريخ :

إن سبب هذا الرفض وجود مصر في حالة « الشدّة العظمى » التي استمرت من سنة٤٥٩ هـ. إلى سنة ٤٦٦ هـ.وهي المدة التي تعرضت للسلب والنهب والفوضى والخراب . . . وفي تلك الفترة كلّف الخليفة الفاطمي « بدر الجمالي » الأرمني بالوزارة فتغلب على المصاعب وأعاد الأمن والثقة والاستقرار .

وفي سنة ٤٥٩ هـ.غادر الملك « علي الصليحي » « صنعاء » قاصداً الديار المقدسة لأداء فريضة الحج ، وترك لولي عهده « الأمير المكرّم » أمر إدارة المملكة بالنيابة عنه ، وكان قد أرسل قبل سفره خمسين أميراً من أمراء اليمن المغلوبين على أمرهم ومائة وسبعين من آل الصليحي ، وغيرهم ممن أرادوا أداء فريضة الحج من قبائل « يام » و « جنب » و « سنحان » وأهل « حراز » وقد رمى من إرسالهم قبله عدم ازدحام الطريق

بهذا العدد الكبير ، ثم تبعهم هو في ألفي فارس . وخمسمائة فرس مطهمة بالسروج ومحلاّة بالذهب والفضة وخمسون هجيناً ، وغير ذلك من الهدايا والعطاء ممّا لا يمكن إدخاله تحت حصر .

ويجب أن لا يسهى عن بالنا بأن نار الحقد وحب الانتقام كانت تستعر في قلوب « بني نجاح » وزعيمهم « سعيد الأحول » فكانوا يتربصون ويتحينون الفرص للإيقاع بالصليحي الذي كان السبب بذهاب ملكهم . وعلم « الصليحي » بتحركات مريبة من قبلهم فاستقدم إليه أحد متقدميهم « فرح البيشي » وهو من العبيد الأحباش المسموع الكلمة ، فذكر له إحسانه إليه وتقديمه ورفع مكانته ، فأنكر « فرح » أن يكون له أي ضلع بما يجري وأقسم الأيمان المغلظة عن استعداده للذهاب وإحضار رأس « سعيد الأحول » ولكن الأمر جاء على العكس ، فإن « فرحاً » لما وصل إلى « زَبيد » أخذ يحرض العبيد والأحباش على الثورة ويوغر صدرهم ، فأمر الصليحي بإلقاء القبض عليه وقتله وهنا ثارت نفوس العبيد وشقوا عصا الطاعة وهاجموا ولاة الصليحيين وقتلوهما وهما : « أبا السعود » و « أحمد بن أسعد بن شهاب الصليحي » كما قتلوا كل من كان معهما من أهل « حراز » ثم نهبوا كل ما كانوا

يملكونه من أموال ومتاع ، وفي الوقت نفسه استدعوا كل من كان على رأيهم من العبيد والأحباش « بتهامة » والحجاز وجنّدوا جنودهم ثم أنهم علموا أخيراً بمسيرة الصليحي إلى الديار المقدسة وأنه لا يرافقه أحد من المحاربين وأهل البأس والمراس ، لأن رجاله قد تقدموه إلى الديار المقدسة وأن جميع أمواله وأثقاله مبثوثة فيما بين « هجر » و « المهجم » وهذه البلاد قد تمهّد مهادها واستقام عمادها وأمنت السبل وخضع فيها كل عزيز . . . ولم يكن مع الصليحي في « المهجم » إلاّ ابنه « الموفق » وزوجته « أسماء بنت شهاب » وأخواه « عبد الله » و « إبراهيم » وجماعة من بني الصليحي ، فلما علم أن الأحباش قد عبأوا قواتهم ، وأنهم في طريقهم لقتاله أنفذ عبيده الذين كانوا معه لمقاتلة العدو المهاجم ، وكان ظنه أنهم يقدرون فضله وإحسانه ويفدونه بالمهج والأرواح ، فذهبوا مسرعين ومتظاهرين بالحماسة وفي قلوبهم تكمن الخيانة والغدر ، وحينما التقوا بأبناء جلدتهم انضموا إليهم وفي نيتهم الشر وقالوا للمهاجمين :

« إن فاتكم غداً لحق بأصحابه وعسكره ، وامتنع عليكم » فساروا مجدين وفاجأوه بقرية يقال لها « أم الدهيم » . . . وهنالك انقضوا عليه ، ولم ينفع دفاعه ودفاع أخوته وأبناء

عمومته . . . فوقعوا تحت حراب الكثرة من العبيد . . . وهكذا قتل الصليحي وكل من كان معه ، باستثناء « الأمير الموفق » و « مهنا بن علي المظفّر الصليحي » وكانا قد اتجها إلى مكان السيدات لحمايتهن . . . ولكن العبيد ما لبثوا أن حاصروا المكان . . . واستمرّ حصارهم أربعة أيام . . . وعندما استأمن « مهنا » خرج إلى « الأحول » وأخذ منه ميثاقاً بالمحافظة على الحرائر الصليحيات وأقسم أنه سيطلق سراحهن ليسرن إلى « صنعاء » فوثق بقوله . ولكن الأحول نقل النساء إلى دار أخرى ثم غدر بكافة الرجال وقتلهم عن آخرهم ونهب كل ما كان معهم من أموال وحلي وهدايا كان الصليحي قد أعدها لينفقها على الحجاج المسلمين ومرافقيه من الخدم والعبيد .

وهنا سألت الملكة « أسماء » « سعيداً الأحول » أن يسمح لها ومن معها من النساء بالعودة إلى صنعاء فامتنع ، وسار بهن إلى « زُبيد » ومعه رأسا الملك « علي الصليحي » وأخيه « عبد الله » محمولين على رمحين أمام هودج الملكة « أسماء » وقد نُصب الرمحان فيما بعد أمام الشباك التي تنظر منه الملكة « أسماء » في الدار التي حلّت بها ، إلاّ أن سعيداً بذل ما استطاع من الجهد في سبيل المحافظة وصيانة كرامة السيدات الصليحيات .

وهكذا . . . ونحن عندما نتوقف لنسدل الستار على تاريخ هذا الرجل العظيم « علي الصليحي » نقول :

إن عهده يعتبر بالنسبة لتاريخ اليمن من أنضر وأسعد العهود ، ويكفي أن يكون معدوداً بين الرجال الذين أسّسوا دولة كبرى . . . وعلى العموم فهو من الرجال الذين قلّ أن يجود بهم الدهر ، خاصة وأن اليمن لم تجتمع لملك واحد ، بل كان الرئيس منهم من يتسنىّ له امتلاك أقليماً صغيراً أو حصناً حتى يأتي من هو أقوى منه فينتزعه . . . فاليمن كانت تعاني فوضى الإمارات الصغيرة المتنابذة . . . أما الصليحي فقد تمكن من جمع اليمن كله تحت لواء واحد . . . ويقول المؤرخ « عُمارة اليمني » :

« إن هذا أمر لم يعهد في جاهلية ولا في إسلام » . . . وذكر « العرشي » في كتابه « بلوغ المرام » : « ولم يقع لأحد فيمن ملك اليمن ما وقع » لعلي بن محمد الصليحي » . . . فإنه استولى على اليمن سهله وجبله ، شماله وجنوبه وشرقه في مدة يسيرة بعد أن قهر أعداءه ، فهو لذلك لا يقل في نظرنا عن بعض القواد الفاتحين الذين لمع إسمهم على صفحات التاريخ بما أحرزوه من انتصارات وما قاموا به من فتوحات وأعمال مجيدة وأن يكُ ذلك لمدة وجيزة » .

من هنا نرى أن الصليحي حكم البلاد حكماً مطلقاً ، ولكنه كان حكماً مستنيراً عادلاً قائماً على أسس حكيمة يتجلّى فيها السمو والرفعة . وبالرغم من أنه ينتسب إلى الفاطميين فإنه لم يكره أحداً على الدخول في عقيدته ، ولكنه لم يكن يغفر لأحد تهاونه في امور الدين .

ذكر المؤرخ « الفاسي » في كتابه « تحفة الكرام » ما يلي :

« فطابت قلوب الناس ، ورخصت الأسعار . وأمنت الحجاج أمناً لم يعرف له مثيل من قبل . حتى أنهم كانوا يعتمرون ليلاً ونهاراً وأموالهم محفوظة ورحالهم محروسة » .

وقال « ابن الجوزي في « مرآة الزمان » :

« فردّ بني شيبة عن قبيح أعمالهم وأفعالهم مع الحجاج . وردّ إلى البيت من الحلي ما كان « بنو الطيب » الأشراف قد سلبوه ، وكانوا قد ملكوا الديار المقدسة بعد « شكر الحسيني » وعروا البيت والميزاب » .

ومهما يكن من أمر فإن ما قام به الملك « علي الصليحي » من إصلاحات في الأراضي المقدسة أكسبه ثقة الكثيرين من

البلدان الإسلامية . من جهة أخرى فإن تسامحه مع علماء « السنة » والسماح لهم بممارسة طقوسهم وشعائرهم بحرية أعاد ثقة الناس إليه .

وكذلك فعل « أسعد بن شهاب » عندما كان والياً على « زبيد » سنة ٤٥٦ هـ ، فأحسن السيرة في الرعية وأذن للسنّة بإعلان عقيدتهم بحريّة .

ولا بد لنا ونحن تقترب من النهاية عن حياة هذا المؤسس الكبير من القول : إنه كان أديباً وشاعراً يعطف على الأدباء ويصل الشعراء لمعرفته بأن الشعر يجب أن يكون السلاح الماضي في خدمة الدولة ، وأنه من أهم وسائل الدعاية لها ، فلم يشأ أن يترك هذا السلاح دون أن يشهره في وجه خصومه وفي الدفاع عن دولته والمباهاة بعدالتها والإشادة بذكرها . . . ومن أشهر الشعراء الذين عاشروا في عصره : « عمرو بن يحيى الهيثمي » و « الحسين بن علي القُمّي » و « الحسن بن أبي عُقامة » .

وتذكر كتب الأدب اليمنية بعض المقطوعات « لعلي الصليحي » قالها في مناسبات عديدة . . . ومنها قصيدة يذكر فيها احتلال حصن « وراخ » :

ما اعتذاري وقد ملكت وراخاً
عن قراع العدا وقود الرعال

ويقول :

وألذ من قرع المثاني عنــده
في الحرب الجم يا غلام وأسرجِ
خيل بأقصى حضرموت مجالها
وصهيلها بين العراق ومنبجِ

وكان « علي الصليحي » بالإضافة إلى كل ما ذكرناه عالماً وفقيهاً مستبصراً في علم التأويل ، كما كان خطيباً مفوهاً .

وفي الختام لا بد من القول :

بان « علي الصليحي » وإن يكن مجهولاً بالنسبة للتاريخ العربي . . . فإن تاريخ اليمن يعتبره مؤسس دولة ، ومقيم تعاليم ، وموجد دولة عريقة في الحضارة ساهمت كثيراً في بناء أسس الأمن والعدل والحرية .

العهد الفاطمي الثاني في اليمن
« الملك المكرم الصليحي »

ظهر « الملك المكرّم بن علي الصليحي » على صفحات تاريخ اليمن بعد مقتل والده الملك «علي الصليحي» الذي مرّ ذكره . . . وقد اتصف « المكرّم » بالشجاعة وكرم الأخلاق وعلو الهمة والتسامح وكأنه نسخة عن والده ، ووصفه صاحب « قلادة النحر » بقوله :

« كان المكرّم ضخماً شجاعاً وفارساً مقداما » .

وقع « المكرّم في حيرة حينما وصلته الأنباء بمقتل والده وأسر والدته . . . وهنا تأهب أعداء الدولة الصليحية للانتفاض مستغلين هذا الحدث الكبير ، وفي هذه الفترة حاصر الأحباش « مالك بن شهاب الصليحي » في حصن « مسّار » وتآمرت معه قبائل من « كحلان » و « وهران » و « عنس » و زبيد » و « يحصب » وامتدت نار الثورة حتى « صنعاء » العاصمة

نفسها . فماذا يفعل « المكرّم » والأعداء أحاطوا به من كل جانب وتباعد عنه الذين كانوا بالأمس يتظاهرون بمحبته والانضواء تحت لوائه ؟

ففي تلك الساعات الرهيبة اتخذ قراره بالتصدي للمتآمرين . واستمد من اليأس قوة . وأخذ يشجع من ظلّ مقيماً على العهد معه . . . وذكر المؤرخ « إدريس عماد الدين » في تاريخه « عيون الأخبار » بقوله :

« كان «المكرّم » يثبت أصحابه على الدين . ويذكرهم بما وعد الله عباده الصابرين وهكذا استطاع أن يرفع عن « صنعاء » الحصار ويتتبع الأعداء حتى ناحية « حَضور » حيث خاض المعركة الأولى التي انتهت بانتصاره » .

وهذا الانتصار قوّى من عزيمة أعوانه ، فخاض « إسماعيل ابن أبي يعفر الصليحي » معركة ثانية بجهات « كحلان » و « وهران » فحقق انتصاراً كبيراً . . . وفي هذا عودة هيبة الدولة الصليحية .

وتشاء الظروف أن يعود إليه قواد دولته الذين ذهبوا مع والده لأداء فريضة الحج والذين أمرهم بالسير أمامه وهم : « عامر بن سليمان الزواحي » و « مدافع بن حسن الجنبي »

و « عمران بن الفضل اليامي » و « الحسين بن عمر السنحاني » وغيرهم . ويذكر التاريخ :

أنهم لاقوا في طريق العودة صعاباً كثيرة من الأحباش الذين كانوا يتتبعون أثرهم ، وقد أوقعوهم في سبعة عشر معركة مع الكمائن المنصوبة لهم ، ولكنهم تمكنوا من النجاة والإيقاع بالأعداء ، وعندما وصلوا إلى صنعاء . . . استقبلهم « المكرّم » استقبالاً منقطع النظير فرفضوا كل مظاهر التكريم حتى يظفروا بالأحباش وينالوا الثأر وهكذا تعاهدوا وعاهدوا الله على ذلك .

لقد كان «المكرّم» يعتقد أن لا بد له من عمليّة حربيّة كبرى يقوم بها لتخليص والدته « أسماء » من سجن « سعيد الأحول » فهذه الصورة القاتمة أصبحت مرسومة في ذهنه ترافقه وتقض مضجعه ، وقد انعكست هذه الصورة أيضاً في نفوس أصحابه المخلصين ، فأصبحت نار الغيظ تتآكل أكبادهم ، وتؤجج نفوسهم . . . ولكن ظهور عوامل الاضطراب والثورات في مختلف أرجاء البلاد كان يجبرهم على تأجيل كل عمل حربي بالنسبة للأحباش إلى أن يتم إعادة الهدوء والأمن .

فأرسل « المكرّم » قائده « عامر بن سليمان الزواحي » إلى بلاد « حميَر » وإلى مغرب اليمن فأعاد الهدوء وقضى على الفتنة وعندما أبت فئة أن تستجيب قاتلهم قتالاً شديداً وتتبعهم في السهل والوعر حتّى قضى على فلولهم ولم يتركهم حتّى جاءوا إلى « المكرّم » طائعين مستجيرين .

أما القائد « إسماعيل بن أبي يعفر » فإنه توجه إلى « يحصب » و « رُعين » بجهات « كحلان » و « وهران » فباشر المعارك مع الثائرين وما زال حتّى قضى على فلولهم التي شردت في القفار والجبال .

وفي سنة ٤٥٩ هـ قام الأمير الزيدي « حمزة بن أبي هاشم الحسيني » بدعوته الجديدة حيث التف حوله فريق من الناس وبايعوه على أنه « إمام » وسمّى نفسه « بأمير المؤمنين » وبعد أن استجاب له خلق كثير هاجم « صنعاء » بخمسمائة فارس وخمسة عشر ألف راجل من « همدان » وغيرها من القبائل . فأرسل « المكرّم » يستدعي « عامر بن سليمان الزواحي » من مغرب اليمن فوصل مع جيشه وانضم إليه المكرّم والقائد « أحمد بن المظفّر الصليحي » فالتقوا بالأمير الزيدي في « المِلوى » ودارت الدائرة منذ اللحظات الأولى عليه . وهكذا ولّى أصحابه

الأدبار هاربين وبقي هو وولده ، فقتلا مع بعض أعوانهم . ويذكر تاريخ « عيون الأخبار » .

إن هذه المعركة انجلت عن ثمانمائة قتيل من أصحاب الأمير الزيدي . وعندما كانت هذه المعركة دائرة حول « صنعاء » اعتقد أعداء « الصليحيين » بأنها ستكون خاتمة المطاف ، وأن عليها تتوقف الأمور ، فلما انقشعت السحابة ، وتمّ النصر « للمكرّم » رجعوا عن غيهم وسكتوا على مضض ، أما « المكرّم » فبدأ يقوم بأعمال التصفية في ضواحي « صنعاء » ومن جهة ثانية أرسل قواده الثلاث : « أحمد بن المظفّر » و « إسماعيل بن أبي يعفر » و « عامر بن سليمان » إلى « حراز » وكان كبار أهلها لا يزالون يدينون بالطاعة للصليحيين ، بينما الدهماء يحاصرون حصن « مسّار » الذي كان يحكمه « مالك بن شهاب الصليحي » وفي طريقهم إلى الحصن المذكور وافاهم العديد من قبائل « مجيح » و « كرار » حيث قدموا فروض الطاعة ، وبعد ذلك تقدموا إلى حصن « مسّار » فاستولوا عليه ، وبعد أن عاهدتهم قبائل « حراز » على الطاعة تابعوا سيرهم نحو ديار قبيلة « بكيل » وكانت شوكتها على المنابذة قوية ، وصولتها على المحاربة شديدة فبلغوا الديار سنة ٤٦٠هـ. وأرسلوا إلى زعماء بكيل يدعونهم إلى الاستجابة . . . فأبوا

إلاّ القتال وعند اليوم الثاني جاءت بكيل » للقتال ، ونشبت المعركة الحاسمة ، فكانت الدائرة على « بكيل » حيث قتل العديد من زعمائها وقوادها ، أما الباقين فقد هرعوا لإعلان الطاعة والولاء . . . وكل هذا شجع القواد الثلاثة على العودة إلى « صنعاء » ظافرين .

وفي تلك الفترة انتهز « بنو نجاح » الأحباش فرصة انشغال جيش « المكرّم » في إخضاع « بكيل » وغيرها من القبائل ، فأغار « بلال » و « أبو الفتوح » ابنا « نجاح » بعساكر كثيرة من العبيد والأحباش وأهل « تُهامة » على « أسعد بن عبد الله الصليحي »في حصن « التعكر » ووقع بين الطرفين قتال شديد دارت الدائرة فيه على الأحباش « بذي أشرق » من قرى « المخلاف » ولكن « بلال » و « أبو الفتوح » تمكنا من النجاة .

ولمّا توطّدت أركان الدولة الصليحية ، واستقرت الأمور في « صنعاء » عوّل « المكرّم » على السير إلى « زبيد » لتصفية الحساب مع الأحول ، واتفق أن جاءه من أمه « أسماء » كتاباً وصل إليه مع « سائل » وكانت « أسماء » قد وضعته في رغيف الخبز ، فعندما رآه أوصله إلى « المكرّم » فأعطاه مبلغاً

من المال . وكان الكتاب يحمل ما يثير الخواطر ، فجمع الأعوان وقرأ عليهم الكتاب . ولم يزل يخطب في الناس قائلاً :

« من يكن يرغب في الحياة فلا يكن معنا » .

ثم أنه جمع قواده وسار على رأسهم بعد أن ترك في صنعاء « إسماعيل بن أبي يعفر الصليحي » نائباً عنه ، وقد أخذ قبل خروجه العهود والمواثيق على « الشريف القاسم بن جعفر بن الإمام المنصور القاسم العياني » وعلى أخيه « محمد بن جعفر » بأن لا ينقضا العهد ثم أحسن إليهما ومنحهما الهدايا والأموال ، وخرج المكرم في عشرة آلاف راجل وفارس فخطبهم وقال :

« إننا لم ننزل لعرض من الدنيا نُصيبه ، ولا لمال نخزنه ، ولا لشيء نذهب به من متاع الدنيا سوى إدراك ثأرنا من هؤلاء العبيد والأحباش واستنقاذ حريمنا ، وإن قصدنا ليس الإضرار بأحد من الناس ولا تغيير شيء مما يملكون ، وعلينا أن لا نتعدى على زروعهم ومواشيهم وحريمهم . . . وأرجو أن تكون سيرتكم حسنة . ولكم حسن الأحدوثة ، وتنالون حميد العاقبة والثناء .

ثم وطيء «المكرَّم» وجنوده « تُهامة » من شرقي « زُبيد » فحطّ الرحال على مقربة من قرية « النّريبة » ودخل مسجدها

عند طلوع الفجر ، وكان أمام المسجد قد فرغ من الصلاة وقف يتلو بعض الآيات . . . فنظر وإذا بفارس يركز رمحه ويشرع بالصلاة . . . فقال الإمام :

« من هذا الذي لم أرَ في ولد آدم أتم منه خلقة ، ولا أحسن منظراً ، ولا أطيب رائحة ؟ » ولم يلبث الصباح حتى طلع فأقبلت الخيل ووقف كل رعيل يسلّم ويقف وكانت تحيتهم له : « أنعم الله صباحك مولانا . . . وأدام عزك . . . فيرد عليهم بقوله : مرحباً بوجوه العرب . . . وعندما تكامل عددهم ، قصدوا « باب الشباق » وهو الباب الشرقي لبلدة « زُبيد » وحين دنا « المكرّم » من « زُبيد » عبأ جيشه . . . فكان هو و « أحمد بن المظفّر الصليحي » و « عامر بن سليمان الزواحي » و « أبو الحسين بن المهلهل » و « الحسين بن عمرو السنحاني » في القلب . . . ومعهم قبائل « نهد » و « سنحان » و « حميَر » ووضع « عمران بن الفضل اليامي » و « مدافع ابن الحسن الجنبي » و « محمد بن علي اليامي » في قبائل « همدان » و « يام » و « جنب » وسواهم في الميمنة ، ووضع « مالك بن شهاب الصليحي » ومعه « الحرازيون » في الميسرة . ثم أقبلوا على الأحباش وكانوا ستة كراديس وعددهم ثمانية عشر ألفاً . فتقابل الجيشان في شهر صفَر سنة ٤٦٠هـ. وقاتل

في هذا اليوم « سعيد الأحول » وجيشه قتالاً عنيداً ، ولكن الجناحان انطويا عليهم ، وكان أن تراجعوا وتمزقوا وهزموا شر هزيمة ، ولكن خيول الصليحيين لاحقتهم فطحنتهم طحن الرحى ولم يسلم منهم إلاّ من كتبت له حياة جديدة ، وكان « الأحول » قد أعدّ خيلاً مضمرة على الباب الغربي المسمّى « باب النخل » فهرب مع بعض رجاله إلى البحر حيث نقلتهم السفن إلى جهة مجهولة وقيل إلى جزيرة « دهلك » أما الملك « المكرَّم » فانشغل بأمر والدته « أسماء » وهكذا لم يتبع المهزومين . وذكر التاريخ :

إن الصليحيين دخلوا « زُبيد » عنوةً وظلّ القتال دائراً فيها حتى صلاة الظهر . وجاء « المكرَّم » إلى الدار التي تقيم فيها والدته « أسماء » وكان قد تنكّر وأخفى وجهه . . . فقال :

« أدام الله عز مولاتنا . . . فقالت : مرحباً بوجوه العرب . . . من تكون ؟ فأجاب :

أنا أحمد بن علي بن محمد . . . فقالت : إنّ أحمد بن علي في العرب كثير . . . فاحسر عن وجهك حتى أعرفك . . . فرفع « المكرَّم » عن وجهه . . . فقالت :

مرحباً « بالمكرَّم » من كان مجيئه كمجيئك فما أخطأ

ولا أبطأ . . . ثم أن رؤساء الدولة وقواد الجيوش دخلوا فسلموا عليها ... وقد كشفت عن وجهها . . . وذكر التاريخ:

إن « المكرّم » نزل عن ظهر جواده ، وسجد لله شكراً ، وعفّر خده بالتراب كما أحرق الدار التي اعتصم فيها بعض الأحباش . ولكنه لم يجعل لأحد سبيلاً إلى حريم « بني نجاح » كما أنه أطلق من وقع أسيراً من أولادهم ، وقبل أن يغادر « زُبيد » نقل رأس والده وعمه إلى « صنعاء » وبنى عليهما مشهداً .

وبعد ذلك أي في ربيع الأول سنة ٤٦٠ هـ خرج من « زُبيد » يريد الإجهاز على الأحباش الهاربين . ولكن وصلته الأخبار من نائبه في صنعاء : « إسماعيل بن أبي يعفر الصليحي » يذكر بأن « الشريف قاسم بن جعفر العياني » قد نقض العهد وأنه اتخذ من غياب « المكرّم » وقواده وجيشه فرصة للانقضاض على « صنعاء » وعلم أيضاً بأن نائبه « إسماعيل » قد اشتد عليه المرض ، وأن الحجازيين وأهل « حراز » قد ساءت بينهما العلاقات . فخاف « المكرّم » أن ينال المخالفون من « صنعاء » ما يبتغون ، فخفّ مسرعاً بالعودة ومعه أمه الملكة « أسماء » والحرائر الصليحيات وفي ذلك يقول الشاعر اليمني « الهيثمي » :

أوبة « أسماء » إلى قصرها بعد فراق الملك الأوحد

كرجعة الشمس وقد جنّها دجنٌ وسربال دجى أسود
فيا لها من نعمة أصّلها بأس ابنها بأبي العلى أحمد

وصل « المكرّم » إلى « صنعاء » وكان أول ما فعله القضاء على فتنة الشريف فلحق به إلى أرض « ذبيان » وباشرهم القتال ولكنهم لم يستطيعوا الصمود ، فتقاموا إليه وأعلنوا خضوعهم ومن هناك سار لإصلاح المغرب اليمنّي ، ومنها إلى « ذي أشرق » ثم جبل « مسوَر » وجبل « حملان » . . . وهناك علم « المكرّم » أن « سعيداً الأحول » قد صار « بالمخلاف » ، وأن « التبعي والسخطي » و « الكلالي » و « يعفر بن الكرندى » و « يحصُب » و « رُعين » قد ساروا صفاً واحداً وأخذوا يهددون الدولة الصليحية ، فعاد إلى « صنعاء » ومنها اتجه إلى « المخلاف » ثم انتهى أخيراً إلى « وادي بينون » فأخضع « بني صعب » من « عنس » و « بني الحارث » و « مذحج » وما زال في طريقه حتّى وصل إلى جبل « الشعر » الذي تحصّن فيه « التبعي والسخطي » فهاجمهم ولكنهما فرّا واعتصما بحصن « الفراغ » ولكن « المكرّم » حاصرهما . . . ولما كانا يعلمان بتسامح « المكرّم » وعفوه . . . سلّما نفسيهما .

وفي عام ٤٦١ هـ غادر « المكرّم » « صنعاء » إلى « زُبيد »

بعد أن وصلته الأخبار بأن « سعيد الأحول » قد عاد للظهور ثانية على المسرح اليمني وهنالك طوّق « جبل الشعر » الذي اعتصم « سعيد الأحول » ورجاله فيه ثم حمل عليهم حملة من يختار الموت على الحياة . فهزمهم هزيمة منكرة وقتل أحد الفرسان « سعيد الأحول » عندما فرّ قرب قرية « مآبة » كما قتل « عامر بن سليمان الزواحي » « بلال » وأخـــوه « مالك » ابنا « نجاح » ، ثم ولّى أمر « زُبيد » « سبـــأ بن أحمد الصليحي » وعاد إلى صنعاء حيث استقر فيها يصرف أمور دولته بحكمة وإدارة ومرونة وعدل ، وفي سنة ٤٦٧هـ. توفيت أمه « أسماء بنت شهاب » وكانت قبل وفاتها قد زوجته « بأروى الصليحي » كما أشارت عليه أن يجعل « ذي جبلة » دار قرار . . . و « ذوي جبلة » مدينة « بمخلاف جعفر » اختطها « عبد الله الصليحي » بأمر أخيه الملك « علي الصليحي » . . . ويقال : أن « جبلة » اسم رجل يهودي كان يسكن فيها ويعمل الفخار في الموضع الذي بنى فيه « عبد الله » « دار العز » الأولى . وتسمى مدينة « النهرين » لأنها تقع بين نهرين كبيرين في الصيف والشتاء ويقال في المثل المشهور :

إن « جبلة » لا يدخلها أحد إلاّ طاهر . . . وصباحها صباح عروس . . . ولما انتقل « المكرم » إليها اختط فيها « دار العز » الثانية في « ذي بور » وكان حائطاً فيه حدائق

وأشجار كثيرة وهو يطل على النهرين وعلى الدار الأولى .

وذكر التاريخ :

إن الملكة « أروى »قالت له عندما انتقل إلى «ذي جبلة » :

العيش هنا أفضل وأسلم للمملكة ، وأثبت لقواعدها ... فهي متوسطة بين اليمن الأعلى والأسفل وبها يخصب العيش ويطيب المحل .

ولكن ومع كل أسف وهو في غمرة الفرح في عاصمته الجديدة داهمه مرض « الفالج » ... فأشار عليه الأطباء أن يحتجب عن الناس ... فترك « ذي جبلة » وصعد إلى حصن « التعكر » بعد أن فوّض لزوجته « أروى » شؤون إدارة الدولة.

ونقول : ... ونحن نأتي إلى الصفحة الأخيرة من سيرة الملك « المكرّم » :

إن الدولة الصليحية قد بلغت في عهده أقصى درجات الأمن والاستقرار والوحدة ، وقد اتفق المؤرخون على أنه كان :

ملكاً شجاعاً شهماً جواداً مقداماً سموحاً ، ولم يخطىء الخليفة الفاطمي « المستنصر بالله » عندما لقّبه : « بذي السيفين » و « داعي السيف » وكان إلى جانب كل هذا خطيباً

فصيحاً، ولم يكن في زمانه من يستطيع حمل رمحه وسيفه وقوسه . . . ولكن الأقدار لم تعطه الفرصة لإكمال البناء ، فأصيب بصحته .

وأخيراً مات الملك « المكرّم » في حصن « التعكر » سنة ٤٧٧ هـ . وفي ذلك ختمت حياة الرجل العظيم ، وبدأت صفحة جديدة في تاريخ اليمن وهي لا تقل عن سابقاتها . . . وأعني بها « الملكة أروى الصليحي » .



العهد الفاطمي الثالث في اليمن
الملكة « أروى الصليحي »

كان أهل اليمن يخاطبونها بلقب « الملكة الحرّة » حبّاً وإجلالاً . . . وهي : « أروى بنت أحمد بن محمد الصليحي ».

ولدت سنة ٤٤٠هـ. ويروى أن والدها « أحمد بن محمد الصليحي » بعثه الملك « علي الصليحي » على رأس الوفد اليمني إلى القاهرة « المعزيّة » لمقابلة الخليفة « المستنصر بالله » بعد استيلائه على حصن « مسّار » . . . ويذكر التاريخ :

أنه مات في « عدن » عندما سقط عليه البيت الذي كان يسكنه . . . أمّا أروى فكانت في ذلك الوقت طفلة صغيرة .

أمها هي « الرواح بنت الفارع بن موسى الصليحي »، وقد تزوجت من « عامر بن سليمان بن عبد الله الزواحي » بعد موت زوجها أحمد ، فرزقت منه « سليمان » القائد الذي

لعب دوراً هاماً في الفتوحات الصليحية ، إذن فهو أخ لأروى من جانب أمها .

قامت بتربيتها وتهذيبها وتأديبها السيدة « أسماء بنت شهاب » زوجة الملك « علي الصليحي » بعد زواج أمها ، فنشأتها تنشئة طيبة . وكانت بالوقت نفسه موضع اهتمام الملك « علي » الذي كثيراً ما قال « لأسماء » :

« أكرميها فهي — والله — كافلة ذرارينا وحافظة هذا الأمر على من بقي منّا » .

كانت على جانب كبير من الأخلاق الفاضلة إلى جانب ما تمتعت به من جمال الخلقة . . . فكانت بيضاء اللون مشرّبة بحمرة مديدة القامة معتدلة البدن، تميل إلى السمنة . . . كاملة المحاسن جهورية الصوت متعلمة تحفظ الأخبار والتاريخ وأيام العرب والشعر . وذكر أن لها تعليقات وهوامش على الكتب وكان يقال لها : « بلقيس » اليمن الصغرى وكانت متبحرة بالعلوم الفاطمية والفلسفة . . . فكان يقصدها الدعاة ويتعلمون منها من وراء ستار ويأخذون عنها ويرجعون إليها .

وأنه من الطبيعي بعد هذا أن يختارها الملك « علي » زوجة لابنه « المكرّم » وبالفعل اقترنت به بعد أن سمي وليّاً للعهد

سنة ٤٥٨هـ. وكان لها من العمر ثماني عشرة سنة وهذا الزواج وصفه الشاعر « القُمّي » بقوله :

وكريمة الحسبين يكنف قصرها
أسد تخاف الأسد من صولاتها
وتكاد من فرط الحياء تغض عن
تمثالها المرئي في مرآتها
ظفرت يداك بها فبخٍّ إنما
لك تذخر العلياء مضنوناتها

وكان « الملك علي » قد أصدقها « عدن » حين زواجها من ابنه « المكرّم » وقد ظلّ مرتوج عدن « يدفع إليها من حين زواجها ، وهو مائة ألف تزيد وتنقص .

أولادها هم :

« علي » و « محمد » و « فاطمة » و « أم همدان » ؛ فأمّا « علي ومحمد » فسنتكلم عنهما فيما بعد ، وأما « فاطمة » فتزوجت من شمس المعالي « علي بن سبأ بن أحمد الصليحي » وتوفيت سنة ٥٣٤ هـ . وأما « أم همدان » فقد تزوجت من ابن خالها « أحمد بن سليمان بن عامر بن سليمان الزواحي » فرزقت منه « عبد المستعلي » وتوفيت سنة ٥١٦ هـ .

بدأت الملكة « أروى » نشاطها السياسي في عهد زوجها الملك « المكرّم » ويقول المؤرخ « عمارة اليمني » :

« لمّا توفيت « أسماء بنت شهاب » والدة « المكرّم » فوّض الأمر لزوجته « أروى » فقامت بالأمر وحدها . واستعفته في نفسها وقالت : « إنما المرأة التي تراد للفراش لا تصلح لتدبير أمر . . . فدعني وما أنا بصدده » .

وكانت تستشير في هذه الفترة « عمران بن الفضل اليامي » و « أبا السعود بن أسعد بن شهاب الصليحي » ولما توفي زوجها سنة ٤٧٧ هـ حملت وحدها عبء هذه المسؤولية الجسيمة . وأصبحت بتفويض من الخليفة المستنصر بالله تتصرف في أمور « اليمن » و « الهند » و « عُمان » .

ومهما يكن فإن سياسة الخليفة الفاطمي « المستنصر بالله » تدل على بعد نظر في الأمور عندما رفض تولية « سبأ بن أحمد الصليحي » الملك بالرغم من وصية « المكرّم » له . وولّى « علي بن المكرّم » بالرغم من صغر سنه لأنه كان يعلم أن والدته « أروى » لها من القوة والجدارة ما يمكن لها من الاضطلاع بشؤون الدولة ، وأنها أبعد نظر من الملوك الرجال أنفسهم . ومن جهة أخرى فإنه أدرك أن من الواجب المحافظة

على مبدأ الوراثة في الابن الأكبر وكان هذا المبدأ معمولاً فيه في عهد الدولة الفاطمية حتى أيام «المستنصر بالله» .

أجل . . . ولم يراعِ «الخليفة المستنصر بالله» وصية «المكرّم» ولا شخصية «سبأ» الممتازة ومحبة الناس له، وغيرته على الدولة الصليحية ومواقفه في خدمتها ورفع شأنها ، ولكن «أروى» وهي السياسية المحنكة أدركت أن عليها القضاء على هذه العاصفة الهوجاء فأعطت «الأمير سبأ» وظيفة «النيابة» عن ولدها الصغير ، وفوّضت إليه قيادة الجيوش فدخل في حروب متوالية مع «جيّاش بن نجاح» وآخر معركة وقعت كانت في «زُبيد» سنة ٤٧٩هـ وهي المعروفة بمعركة «الكظائم» وفيها انهزم «سبأ» ومن معه ، وقتل أخوه «الأمير قيس» و «محمد بن مهنّا» والقاضي «عمران بن الفضل اليامي» كما عُقرت فرس «الأمير سبأ» فاضطر أن يسير راجلاً حتى حمله أخيراً جنده على جواد آخر .

وهكذا ملك الأحباش «زبيد» ولم يقدر الصليحيون على أخذ «تهامة» بعد تلك المعركة . وذكر التاريخ :

إنّ «الأمير محمد» ابن الملك «المكرّم» مات في حياة أخيه ، وبعده بفترة قصيرة مات «الملك علي بن المكرّم»

فقام « الأمير سبأ » يطالب بحقه في تولي أمور الدولة ، ولكن الملكة « أروى » لم تمكنه من ذلك ثم أنها أعلنت عن نفسها بأنها المسؤولة الأولى عن الدولة .

وهنا اتخذ الأمير « سبأ » سبيلاً آخر لإقناعها بأن طلب يدها للزواج ، ولكنها رفضت ذلك وأنكرته غاية الإنكار وعندئذٍ جمع الأمير « سبأ » جيوشه وسار من حصن « أشيَح » إلى « ذي جبلة » لا لمحاربة الملكة ، ولكن لإظهار قوته وسؤدده ، فجمعت هي جموعها ، وكادت رحى الحرب تدور بينهما لولا أن « سليمان بن عامر الزواحي » « أخو الملكة أروى لأمها » أنقذ الموقف بأن أشار على الأمير « سبأ » أن يتصل بالخليفة « المستنصر بالله » ويقيمه حكَماً فاصلاً .

فترك الأمير « سبأ » المنهج العسكري ورجع إلى حصن « أشيَح » ثم أنه سيّر إلى الخليفة « المستنصر بالله » رسولين هما القاضي « الحسين بن إسماعيل الأصبهاني » و « أبو عبد الله الطيب » . . . وهنا تظهر الاضطرابات التاريخية :

فبعض المصادر تذكر أن الخليفة «المستنصر بالله » أصدر أمره إلى « أروى » بالقبول بالأمير « سبأ » زوجاً لها . . . وتضيف هذه المصادر أنها رفضت الأمر . . . وهناك مصادر تشير إلى أنها قابلت الأمر بالرضى والقبول وأنها تزوجته .

ومهما يكن من أمر فإن جميع المصادر اليمنية التاريخية تؤكد بأن « أروى » بعد هذه الأحداث أقامت « سبأ » على الدولة ولكن تحت إشرافها المباشر . . . وكان « سبأ » كما يصفه التاريخ :

فاضلاً ورعاً تقياً ما وطىء أمة قط ، ولا شرب مسكراً . . كريم طيب يقصده الشعراء وأصحاب الحاجات ، وكان أيضاً فصيحاً وشاعراً يجيب الشعراء على قصائدهم ثم يجيزهم ويزيد في برهم وفي ذلك يقول الشاعر « القُمّي » .

ولمّا مدحتُ الهزبريَّ ابن أحمدٍ
أجاز وكافاني على المدحِ بالمدحِ
فعوّضني شعراً بشعري وزادني
عطاءً فهذا راس مالي وذا ربحي
شققتُ إليهِ الناس حتّى لقيته
فكنت كمن شقَّ الظلام إلى الصبحِ
فقبّحَ دهر ليس فيه ابنُ أحمدٍ
ونزّهَ دهر كان فيه من القبحِ

وهكذا ظلّ « الأمير سبأ » في حصن « أشيح » يقدم المساعدات والاستشارات إلى الملكة « أروى » حتى وافته

المنية سنة ٤٩١ هـ.وتشاء الأقدار أن يموت بعده بعام « عامر بن سليمان الزواحي » أخ « الملكة » من أمها وكان من القواد الكبار الذين خدموا الدولة الصليحية بإخلاص وتفاني .

وبعد موت هذين القائدين خرجت « صنعاء » وما يتبعها عن دولة الصليحيين ، ولم تفكّر « الملكة أروى » باسترجاعها وكانت قد عهدت إلى « المفضّل بن الوليد الحميري » بإدارة شؤون الدولة وقيادة الجيش ، وكان المفضل من الشخصيات البارزة والقواد المعترف بإدارتهم وقيادتهم ، فغزا « تُهامة » مراراً وهبط «عدن» أيضاً وكانت له مواقف حميدة حتّى أنه حارب « الأمير علي بن سبأ » عندما أعلن العصيان في حصن « قيضان » فأخرجه منه سنة ٤٩٥ هـ.كما حارب القبائل التي خرجت عن الطاعة واسترجع خراج « عدن » بالقوة من «آل زريع » .

كان المفضل حازماً وشجاعاً وشهماً له مفاخر جمة وقد توفي سنة ٥٠٤ هـ.وبعد وفاته خرجت بعض الجهات على الدولة ، وأخذت العواصف تهب من كل جانب ولم ينفع تعيين « الأمير أسعد » مكان ابن عمه « المفضل » بل أن التدهور ظلّ مستمراً والأمور ازدادت تعقيداً ، وهذا ما حدا بالملكة « أروى » إلى الطلب من الخليفة « المستنصر بالله » تعيين مستشار من قبله

يكون بجانبها ليساعدها في تدبير وإدارة شؤون الدولة ، فأرسل إليها سنة ٥١٣ هـ. « علي بن إبراهيم بن نجيب الدولة » .

وهكذا جاء إلى « ذي جبلة » وتقلد أمر الجيوش والدولة وبدأ أعماله بفض الخلافات ، وإعادة الأمن والطمأنينة إلى البلاد .

كان أول عمل قام به هو تأديب الخولانيين لأنهم كانوا قد بسطوا أيديهم على الرعايا في البلاد ، واستهانوا بالملكة « أروى » فطردهم من « ذي جبلة » ونواحيها ، وأوقع بمن بقي منهم حتى لم يبق منهم إلا من كان مؤيداً للدولة .

وأمّن « ابن نجيب » البلاد ، واستقرت الأمور في عهده ، ورخصت الأسعار بحسن سياسته وتدبيره ، وأقام العدل ، وعزّز جانب الدولة .

وبعد فترة من إقامته أرسل إليه الوزير « المأمون البطائحي » من مصر أربعمائة محارب أرمني وسبعمائة أسود وجميعهم من الرماة المدربين ، وهذا ما جعله يسرع في محاربة الدولة « النجاحية » في « زبيد » سنة ٥١٨ هـ. وكان عليها « الفاتك » أحد عبيد « بني نجاح » .

وكان عشرة رماة من الأرمن أصحاب « ابن نجيب » قد

استأمنوا إلى أصحاب «زُبيد» ولمّا بدأ الزحف رمى رجل من العشرة المستأمنة بسهم فلم يخطىء أنف الفرس الذي يركبه «نجيب الدولة» فسقط إلى الأرض . وشبّ الفرس فانهزم عسكره ، وقتل السودان بأسرهم ولم ينج من الأرمن سوى خمسين وكانوا أربعمائة ، أما «ابن نجيب» فقاتلت عنه «همدان» أشد قتال حتّى أن رجلاً منهم اسمه «السباعي» أردفه وأنقذه فعاد إلى «ذي جبلة» واجتمع بالملكة «أروى» التي عاضدته وأعطته الأموال وجمعت إليه الرجال ، ولكن كل هذا لم ينجه من حسد المنافسين الذين أخذوا يوقعون بينه وبين الملكة «أروى» فأخذت علاقته معها تفتر منذ سنة ٥١٩هـ. حتّى قيل أنه رماها بالخبل حين قال :

«قد خرفت واستحق عندي أن يحجر عليها» .

وفي إحدى المعارك التي خاضها «ابن نجيب» حاصره أعداء الدولة الصليحية في «الجَنَد» وهي ذات سور منيع ، فلما اشتد عليه الحصار أرسل إلى الملكة «أروى» يطلب منها النجدة فأرسلت إلى «عمرو بن عرفطة الجنبي» فأتاها وخيّم في «ذي جبلة» ثم أنها بعثت إلى وجوه القبائل ففرقت فيهم عشرة آلاف دينار مصري وقالت للرسل أشيعوا في العسكر

أن « ابن نجيب » فرّق في الناس عشرة آلاف دينار مصرية ، فإن أنفق الأمراء شيئاً من الذهب المصري بقينا وإلاّ ارتحلنا .

فلمّا طالب العسكر الأمراء بذلك وعدوهم ، ولما كان الليل ارتحل الجند ورجع كل واحد إلى بلده وأصبح الأمراء بلا جيش ، والحشود بلا أمراء وانفض الناس عن « الجند » بهذه الحيلة الحربية . . . وهنا قيل « لابن نجيب » هذا تدبير من قلت عنها أنها خرفت ، فركب إلى « ذي جبلة » وتنصل واعتذر ، ولكن هذا الاعتذار ، لم ينقذه من المصير المحتوم لأن أخباره قد وصلت إلى الخليفة « المستنصر بالله » فأرسل « الأمير الموفق بن الخيّاط » في مائة فارس إلى اليمن للقبض على « ابن نجيب » فسلمته الملكة « أروى » بعد أن أخذت العهود والمواثيق على « ابن الخيّاط » بأن لا يمسوه بأذى كما أنها أرسلت إلى الخليفة « المستنصر بالله » كاتبها « محمد بن الأزري » ليتشفع « لابن نجيب » وهنا يختلف المؤرخون في نهايته فمنهم من ذكر بأنه قتل وشهر به سنة ٥٢٤هـ. ومنهم من ذكر بأنهم اكتفوا بإبعاده ، وبعد رحيله عن اليمن اختارت الملكة « أروى » « علي بن عبد الله الصليحي » فلم يكن من الرجال الأكفاء ، ويبدو أن الدولة الصليحية وصلت في هذه

المرحلة إلى درجة الانهيار فكانت عوامل الانحلال والشيخوخة قد تملّكت بقلب الدولة فصارت أقوى من العوامل الأخرى .

ومن الجلي الواضح أنه في تلك الفترة الأخيرة استولى « ابن المفضل بن أبي البركات الحميري » على « ذي جبلة » وملك « منصور » ولده حصن « أشيح » وما يتبعه . ولكنه ظلّ يدين بالطاعة للملكة « أروى » حتى وفاتها سنة ٥٣٢ هـ . وبعد ذلك استولى على ما كان تحت يدها من حصون وأموال وذخائر ، ولما تقدمت به السن وصار لا يستطيع حماية هذه الحصون من الطامعين باعها سنة ٥٤٧ هـ. إلى « محمد بن سبأ الزريعي » وظلّت بأيديهم حتى استولى على بلادهم . « توران شاه بن أيوب » .

وهكذا انتقلت السيادة في اليمن إلى الأيوبيين الذين أعلنوا الخطبة باسم العباسيين وذلك بعد حكم فاطمي دام ما يقارب المائة عام .

وأخيراً :

لا بدّ من القول بأن الملكة « أروى الصليحي » ستبقى خالدة في نفوس اليمنيين والعرب مدى الدهر . وستظل وحياً ونوراً مهما اختلفت الطرق واشتدت الأزمات وبعدت المسافات

وتخلفت القوافل ، لأنها وحيدة كل زمان ، والمرأة التي حكمت اليمن بعد « بلقيس » .

أجل . . . ماتت الملكة « أروى » سنة ٥٣٢ هـ.عن عمر ناهز (٩٢) عاماً ودفنت في مسجد « ذي جبلة » .

هذا ، وإذا كانت الدول الناهضة في العصر الحاضر تعمل على تنمية اقتصادياتها بشتى الوسائل لإسعاد شعوبها وتوفير الرخاء لأكبر عدد من سكانها ورفع مستوى المعيشة بين أفرادها فإن « أروى » لم تترك فرصة تمر إلاّ وعملت وبذلت كل عنايتها في سبيل الهدف المنشود . فاهتمت بالزراعة والصناعة والتجارة والمواصلات ، واستعانت بالخبراء والمستشارين من الدول الأخرى ، كما أنها أولت الزراعة والفلاحة اهتماماً خاصاً لأنها كانت تعتقد أن هذه الطبقة العاملة الفقيرة المحرومة يجب أن تنال حقوقها وأن يمنع الولاةوالزعماء من التحكم بها واستعبادها ، وأن مثل هذه المبادىء كانت تلاقي كل قبول من قبل الطبقات العاملة ، ويحول دون انتشار روح التذمر . . . من جهة أخرى فإن الملكة « أروى » عرفت قدر التجارة وأنها من مرافق الاقتصاد الوطني ولهذا كان لا بد من الاعتماد على المواصلات فهي الدعامة الكبرى لتسهيل نقل الحاصلات

والواردات . فعبَّدت الطرق . وأولت حركة البناء والتعمير اهتمامها فأنشأت المدارس وبنت المصحات والمساجد والحدائق ، ومن مآثرها أنها منحت رعاياها في عموم اليمن حرية الاعتقاد وممارسة الطقوس الدينية ؛ وهكذا فاخرت الملوك بأعمالها وأوامرها التي استمدتها من مصلحة الشعب وأتاحت بها الفرصة لجميع الكفاءات لتتعاون في بناء الوطن الذي كانت تعتبره ملكاً للشعب وليس لها أو لأسرتها .

وفي نهاية المطاف لا بد من القول :

بأني قد عشت بالروح مع هذه المرأة فرحت أتسقط أخبارها في كل سفر . وأتعرف على أخبارها من المخطوطات اليمنية وكلّما زاد البحث والتنقيب ازداد حبي لها وتضاعف إعجابي وتقديري لها .

ذاك عصر بعيد . . . ولكنه جميل . . . نرى فيه الطموح والمغامرة والتطاحن السياسي والمؤامرات والحروب والقتل ... كما نلمس فيه الثبات والرجولة والوفاء يتجلّى في سحر الشرق وروحانيته وكرم بنيه وإيمانهم الراسخ بوطنهم .

الفاطميون في المشرق
وسقوط بغداد العباسية

الدعوة الفاطمية قديمة في المشرق ، فهي لم تتوقف عن العطاء منذ أن كان مركز انطلاقها في « سلمية — سورية » وبعد أن تمركزت بالمغرب ثم في الديار المصرية ازداد هذا النفوذ واتسعت رقعته وأصبح يرتكز على أسس متينة ودعائم قوية . . . وقد كنا في الأجزاء السابقة من هذه الموسوعة التاريخية أعطينا لمحة وجيزة عن نشاط الدعاة الفاطميين وعبقريتهم ، والأساليب التي كانوا يتبعونها لنشر تعاليمهم ، وفي هذا الجزء تطرقنا إلى قيام « الدولة الصليحية » في اليمن التي برزت للوجود بعهد الخليفتين « الظاهر والمستنصر » : والآن نأتي بلمحة عن الدعوة الفاطمية في فارس والعراق ، ونشاط الداعية الكبير « المؤيد في الدين — هبة الله الشيرازي » الذي تمكن بدهائه ومرونته من إعادة « حلب » إلى الدولة

الفاطمية ثم إحداث انقلاب عسكري في بغداد استهدف الخليفة العباسي « القائم » ، وإلحاق العراق بالدولة الفاطمية ، وقد ظلّ هذا الوضع قائماً مدة عام ونيف . . . والحقيقة . . . لو أن مخطط هذا الداهية نفّذ ، أو لو أنّ القائمين على شؤون الدولة الفاطمية العليا أعاروا آراءه ما تستحقه . . . إذن لتغيّر وجه التاريخ .

أجل . . . لا يستطيع الباحث في التاريخ وهو يعرض أحداث الماضي وسير حياة العظماء الذين لعبوا دوراً مهماً على مسرح الحياة إلاّ أن يعرّج ولو هنيهة على رحاب عَلَمٍ من أعلام الأدب والفلسفة والخطابة ، وداهية من دهاة السياسة استطاع بمرونته وعبقريته وصبره أن يحدث إنقلاباً عسكرياً في أكبر دولة عرفها التاريخ القديم . . . ذلكم هو « المؤيد في الدين » داعي دعاة الفاطميين في فارس في القرن الرابع للهجرة والمعروف في تاريخ الأدب العربي بمناظرته مع « أبي العلاء المعري » ... وبالرغم من أن « المؤيد في الدين » فارسي الموطن إلاّ أنه عربي الأصل ، وقد ذكر التاريخ :

بأنه وفد على مصر وأقام فيها ثلاثين عاماً ونيف حيث أنشد في ربوعها أرق القصائد ، وألقى أروع المحاضرات « المجالس » على الطلاّب والراغبين والمستجيبين ، فأثر

في الحياة العقلية والسياسية والأدبية تأثيراً لا حدود له ، ولم تكن لتقف في سبيله قضايا الأدب والشعر والفلسفة أو تمنعه من الانصراف إلى حقل السياسة العليا للدولة الفاطمية ولعله أول داعٍ للفاطميين جمع بين الأدب والسياسة .

هو : « هبة الله بن أبي عمران بن داود » ولد في «شيراز» سنة ٤١٠ هـ . . . والده كان حجة فارس بعهد الخليفة الفاطمي السادس « الحاكم بأمر الله » . . . وكل ما عرف عنه قول « المؤيد » عنه في سيرته بقوله :

« إن والدي كان في هذا البلد متسماً بهذا الاسم مرتسماً بهذا الرسم وكان له من المكنة واليد والقدرة ما كان يغنيه أن يطأ عتبة باب أو يقاسي ذل حجاب وكان في عهده الوزير « أبو غالب — الواسطي » الملقب « بفخر الملك » و « وزير الوزراء»والمشهور باتساع مكنته وانبساط يده ونفوذه ، فلم يعهد والدي قط داخلاً إليه أو مسلماً عليه بل كان هو يزوره ويغشاه في منزله » .

من هنا يتبين أن والد « المؤيد » كان داعياً للدعاة في إقليم فارس ، وأنه كان على جانب كبير من عزة النفس والمكانة والاحترام حتى أن الوزير « الواسطي » كان يزوره

في منزله دون أن يزور هو الوزير في منزله أو في دار وزارته .

ويذكر التاريخ :

إن « المؤيد » بعد وفاة والده تبوأ مرتبة داعي إقليم فارس وبدأ نشاطه بأن اتصل بالملك « البويهي » «أبو كاليجار » الذي كان في بدء حياته يكره الشيعة ثم أصبح « فاطمياً » بعد اتصال « المؤيد » به وخاصة بعد أن حضر مجالسه العلمية واستمع إلى مناظراته مع علماء « المعتزلة » و « الزيدية » و « السنة » . . . تلك المناظرات كان يتفوق فيها على مناظريه ويفحمهم بالأدلة والبيانات والحجج الدامغة . . . وكل هذا عجّل بانتفاضة الأعداء عليه وحسدهم وعلى الأخص طبقة العلماء ورجال الدين والقضاة ، وتشاء الظروف في تلك الفترة أن يتصدع أركان أحد المساجد في مدينة « الأهواز »فيذهب « المؤيد » للإشراف على ترميمه وتجديده ، وهناك تجرأ وأمر بنقش أسماء الخلفاء الفاطميين بالذهب على محرابه وأبوابه . كما أقام خطبة الجمعة باسم الخليفة الفاطمي « المستنصر بالله » .

وهنا ثارت ثائرة قاضي « الأهواز » « ابن المشتري » فأرسل كتاباً إلى الخليفة العباسي « القائم » في بغداد ينعي فيه الدولة العباسية ، ويؤكد ذهابها على أيدي المؤيد ، وعلى الأثر أرسل « القائم » وزيره « علي بن الحسن » المعروف

« بابن مسلمة » إلى « شيراز »مع كتاب إلى « أبي كاليجار » يهدده بالاستعانة « بالسلاجقة » وإغرائهم بالاستيلاء على ما يمتلكه من البلدان إذا ظلّ « المؤيد في الدين » في فارس . فخاف « أبو كاليجار » من عاقبة الأمور ، وكان من أمره أن أوعز إلى « المؤيد » بالخروج من « شيراز » . . . وأخيراً ولما لم يجد « المؤيد » بداً من الهجرة سار إلى مصر متخفياً ومتجنباً الطرق العامة وسالكاً البراري والقفار حتّى وصل إلى « القاهرة المعزيّة » سنة ٤٣٩ هـ .

أجل . . . خرج «المؤيد في الدين » من « شيراز » وفي أعماقه خلجة رعناء تزداد ضراماً ونقمة عارمة تتوقد كل صباح ومساء . . . خرج من فارس يتحمل لفح الهجير والزمهرير ماضياً إلى غايته مسرعاً ، ولم تكن متاعب الطريق والصعاب لتستطيع أن تحوله عن عزمه ، أو تعيقه عن بلوغ أهدافه .

خرج من وطنه مرغماً دون أن يكون له في رحلته الشاقة صديق أو رفيق . . . إن أشرق الصباح توارى خائفاً ، أو جنّ الليل سار متحرزاً وفي الحالتين لايني عن التفكير في ماضيه وحاضره ومستقبله . . . وكانت تلك الفترة من أكثر

الفترات في حياته ألماً وأبعدها غوراً حتى أنها طبعت نفسه بطابع الحقد والضغينة وجعلته أميل إلى الانتقام ، وأشد رغبة إلى الثأر .

خرج « المؤيد في الدين » من « شيراز » وهو يتطلع إلى بغداد شزراً . . . كان يعلم أن الخلافة العباسية لا تزال ترتجف هلعاً عندما يذكر اسمه . وأن ساستها ما فتأوا يتسقطون أخباره فبمجرد ذكر اسمه تنقض مضاجعهم . . . فقد أزعجهم تحليقه كالنسر الذي لا يعشق إلاّ الأعالي .

خرج وفي أحشائه الحنين إلى وطنه وأهله وأخوته . وآلمه أن يرغم على الهجرة إلى بلدٍ لا يملك فيه أموالاً ولا أطياناً . . . لا خيلاً ورزقاً . . . لا صديقاً ولا رفيقاً .

وحطّ الرحال أخيراً في « القاهرة — المعزيّة » وكانت آماله . . . بأن الخليفة الفاطمي « المستنصر بالله » سيوليه عطفه ويدنيه ويكافئه على جهاده وينيله كل ما يتمناه ولكن أنّى له الاتصال به ؟ . . والخليفة مشغول عنه بالخلافات والانشقاق الداخلي الذي ذرّ قرنه في صفوف حاشيته ووزرائه وقواده فجعلتهم يعلمون رشدهم ويكيدون المكائد لبعضهم البعض . . . وأخيراً : يتآمرون على مصلحة الدولة الكبرى وقضية البلاد

العليا مضافاً إلى ذلك ظهور بوادر انتفاضات في الأقاليم والبلدان الفاطمية في المغرب والحجاز وصقلّية . . . مما جعل كل هذا يهدد كيان الدولة العظمى التي كانت أعلامها ترفرف في ذلك العهد في أجواء سورية وفلسطين وصقلية وعموم شمالي أفريقيا واليمن والحجاز والسند . . . أي من المحيط الأطلسي غرباً حتى البحر الأحمر شرقاً وقد أوحى هذا الوضع « للمؤيد » هذه الأبيات :

« إلهي أحاط اليأس من كل جانبٍ
بنا وبنا ضاقت جميع المذاهبِ
غدونا بجور الدهر مأكل آكلٍ
وصرنا بمسّ الضرّ مشرب شاربِ
غدت دعوة الأطهار من آل فاطمٍ
شموس الهدى الشمُّ الكرام المناسبِ
مبلبلة من قصد نــاسٍ مغالبٍ
مزلزلة من كيد رجس المناصبِ

في مصر وجد « المؤيد في الدين » أن أمرها في أيدي حفنة من الوزراء الوصوليين المستغلين ، ففكّر غير مرة في الرحيل عنها ، ولكنه اصطدم برغبة الخليفة في البقاء والانتظار والصبر ،

وهكذا قدّر عليه أن يعيش بين الدسائس والوشايات والمؤامرات، فكان تارة يقرّب وتارة يُبعد . . . فهو بين الرضى والغضب... بين المد والجزر . . . وهكذا فإن العباقرة في كافة الأزمنة والعصور يتعثرون ، ويحوطهم الحاسدون وتطوقهم الغايات والأهواء والسحب الدكناء والعواصف الهوجاء .

ذكر التاريخ :

إن « المؤيد في الدين » حينما وصل إلى القاهرة تقرّب من « أبي سعد بن هارون التستري » واتخذه واسطة للوصول إلى الخليفة « المستنصر بالله » و « التستري » كما ذكرنا في الجزء السابق من الموسوعة كان مربياً لوالدة الخليفة . . . فمن هذه الجهة كان واسع النفوذ وقابضاً على أمور الدولة يتصرف بها كيفما شاء وفوق ذلك فقد تسلّم نظارة الخاصة لأم الخليفة ... ولكنه ماطل وسوّف ولم ينفّذ وعده ، وأخيراً قتل سنة ٤٣٩ هـ بمؤامرة دبرها الوزير الأول « صدقة بن يوسف الفلاّحي » فكان هذا الحادث مدعاة للمؤيد لأن يتصل بهذا الوزير الذي بادر إلى تعيينه ناظراً على المجلس الخاص الذي يدخل منه الخليفة على والدته . وكان غرضه من هذا التعيين إفساح المجال أمامه لمقابلة الخليفة والتحدث إليه . ولكن

شاءت الظروف أن تبقى أبواب الخليفة موصدة في وجهه . . . مما جعله يرسل إليه هذه الأبيات :

أقسم لـــوانك تـــوّجتني بتاج كسرى ملك المشرق
ونلتني كـــل أمور الورى من قد مضى منهم ومن قد بقي
وقلتَ أن لا نلتقي مرةً أجبتُ يا مولاي أن نلتقي
لأنَّ إبعادك لي ساعــةً شيّب فوديَّ مع المفرقِ

فأجابه الخليفة « المستنصر بالله » على الفور :

يا حجةً مشهورةً في الورى وطود علمٍ أعجز المرتقي
ما أغلقت دونك أبوابنا إلاّ لأمرٍ مزعجٍ مقلقِ
ولا صددناك ملالاً فثق بعهدنا وارجع إلى الأليقِ
أتباعنا قد عدموا رشدهم في الغرب يا صاح وفي المشرقِ
فانشر لهم ما شئت من علمنا وكن لهم كالوالد المشفقِ
إن كنت في دعوتنا آخراً فقد تجاوزت مدى السُّبَّقِ
مثلكَ لا يوجد فيما مضى من سائر الخلق ومن قد بقي

وفي سنة ٤٤٠ هـ.عزل الوزير « الفلاّحي » وسجن ثم قُتل أخيراً انتقاماً « للتُستري ». فتولّى بعده « اليازوري » الوزارة الأولى ، فكان حاله مع المؤيد حال الرجل الذي يخافه ويحسب له الحساب ، من جهة ثانية اعتبر وجوده قريباً

من الخليفة ووالدته أمراً يعكّر عليه صفوَ عيشه وربما يفسد العلاقات بينه وبين الأسرة الحاكمة . وهذا ما جعله ينقله إلى وظيفة رئاسة ديوان الإنشاء .

وهنا تبدأ حياة « المؤيد في الدين » السياسية . فيباشر نشاطه واتصالاته وتطلعاته . . . ولكن معارضة الحاشية برزت للعيان من جديد متخذة أعنف المواقف . وقد ساءهم أن يصل هذا الرجل « الأعجمي » الغريب إلى هذا المنصب الكبير الحسّاس بهذه السرعة ، كما آلمهم ظهور الحقيقة واضحة . . . وقد عرف « المؤيد » كل هذا فكان لسانه يردد :

« أنا في دار غربةٍ وحقيق
غير بدعٍ إنْ ذلَّ فيها الغريب »

ويقول :

« قد كنت أفترسُ الأسودَ بفارسٍ
والآن تنهض لافتراسي الشاةُ »

ومهما يكن من أمر فإن « المؤيد » بعد تسلمه المنصب المذكور تحسّنت حالته المعيشيّة فتمكن من العمل والتفكير والتخطيط . فأجرى الاتصالات بالعراق والشام وفارس وأرسل الرسل إليها لاستطلاع الأخبار والأحداث والوقوف

على ما يجري في بلاط الدولة العباسية ، وبعد دراسة مستفيضة رأى بثاقب نظره وتوقد ذكائه أن « التركمانية » في العراق إذا ما تمكنت من السيطرة على الحكم فإن مصالح الدولة الفاطمية تتعرض للأخطار وخاصة البلدان والأقاليم الواقعة في الشام وحلب وأعالي الجزيرة ... فهرع إلى الخليفة « المستنصر بالله » وأطلعه على هذه الحقائق ... وهنا أطلق « المستنصر بالله » يده في المشرق ، ووضع تحت تصرفه الإمكانيات المادية والمعنوية باعتباره خبيراً بأحوال المشرق عامة عارفاً بأموره ، وهذه البادرة شجعته على العمل وبذل المساعي للقضاء على العباسيين الذين ناصبوه العداء وشردوه من أوطانه ... وتشاء الظروف في تلك الفترة أن يزداد نفوذ القائد « البويهي » « أبو الحارث ارسلان البساسيري » لدى « القائم » العباسي . ولما كان « المؤيد » على علاقة وثيقة وقديمة به فإنه اتصل به من جديد ، واتفقا على خطة للعمل وتقرير سياسة معينة تهدف إلى الإطاحة بالعباسيين وإبعادهم عن الحكم في العراق . وبعد مشاورات ودراسات تمّ الاتفاق بينهما على الاجتماع في العراق ، فاستأذن « المؤيد » الخليفة « المستنصر بالله » الذي استجاب له وزوّده بالأموال والخلع والهدايا والألقاب . وهكذا سار ميمماً شطر المشرق .

في الشام جنّد « المؤيد » ثلاثة آلاف رجل من قبيلة « بني كلب » وأرسلهم إلى الرحبة ليكونوا تحت أمرة « البساسيري » وفي حمص ضرب بأوامر الوزير « اليازوري » عرض الحائط الذي كان قد أمره بعدم الاتصال « بالمرداسيين » أصحاب حلب ، فأرسل إلى « ثمال بن صالح بن مرداس » كتاباً إلى « حلب » دعاه فيه إلى الاجتماع . وبالفعل تمّ اللقاء في موقع « الرستن » الواقع على ضفاف نهر « العاصي » بين « حمص وحماه » وهنا تمكن بحسن سياسته وبعد نظره ودهائه من استمالته بعد أن كان أعلن استقلال « حلب » عن الدولة الفاطمية ، ثم عقد معه اتفاقاً على العمل المشترك ، وسارا أخيراً معاً إلى « حلب » وفي « معرة النعمان » وافاهم بعض ضباط « البساسيري » بقصد مرافقة « المؤيد » إلى العراق ، وبعد أن أقام في حلب مدة قصيرة سار إلى « الرحبة » ومعه « ثمال » وفي الطريق وصل إليهم رسول « نصر الدولة — أحمد بن مروان » صاحب « ميافارقين » و « ديار بكر » وكان يحمل رسائل التأييد والترحيب .

وأخيراً :

وصل « المؤيد في الدين » إلى « الرحبة » وفيها خرج « البساسيري » مع أركانه وجنوده لاستقباله ، فحمل لهم

« المؤيد » تأييد الخليفة « المستنصر بالله » وعطفه ودعمه وتأييده ، وبعد أن عرضت الأمور ودرست الأوضاع اتصل « بنور الدولة — الأمير دبيس بن مزيد » صاحب « الحلة » وأمير العرب في بلاد ما بين النهرين فأقنعه بضرورة اللحاق « بالبساسيري » ووضع قواته تحت إمرته . . . وبعد أن تمّ كل شيء على غاية ما يرام . . . زحف « البساسيري » على بغداد وكان ذلك سنة ٤٤٨ هـ ، ولكن « قتلمش » ابن عم القائد « طغرلبك » و « قريش بن بدران » صاحب « الموصل » اعترضا جيشه في « سنجار » وهي على مقربة من « الموصل » فنشبت بينهم المعركة المشهورة التي انتهت بانتصار « البساسيري » وهزيمة الأعداء ، ومما يذكر أن « قتلمش » قتل في المعركة بينما « قريش » لجأ إلى الأمير « دبيس » فعفا عنه وضمه إلى جيشه بعد أن مُنح لقباً فاطمياً بالاتفاق مع « المؤيد » . . . وهذه المعركة أوحت للشاعر « ابن حيّوس » هذه الأبيات :

عجبتُ لمدعي الآفاق ملكاً
وغايته ببغـــداد الركودُ

ومن مستخلفٍ بالهون يرضى
يُزاد عَن الحياضِ ولا يزودُ

وأعجبُ منهما سيفٌ بمصرٍ
تُقام له «بسنجار» الحدود

كان « المؤيد » من شهود المعركة الحاسمة . وعندما حقّق « البساسيري » الانتصار الأول طلب إليه « المؤيد » أن يتريث بالزحف على بغداد . ثم عاد إلى « حلب » وغايته إرسال المزيد من الجند إلى « البساسيري » من القبائل العربية في الشام والجزيرة وكان قد لمس ترددهم في البداية . . . ويذكر التاريخ أنه نزل في « بالس » وفيها تمكن من الاتصال بشيوخ « بني عقيل » و « بني كلاب » و « نُمير » و « خفاجة » فأقنعهم واستمالهم وجندهم ولم يغادر المكان إلاّ بعد ذهابهم إلى « البساسيري » .

ويذكر التاريخ :

إن ردود الفعل لدى « القائم » العباسي كانت عنيفة ، وخاصة عندما وصلته أخبار معركة « سنجار » وانهزام جيوشه ومقتل قواده ، وهنا . . . أوعز إلى القائد « طغرلبك » بتسلّم القيادة العامة والتصدي « للبساسيري » ولكن « المؤيد » الداهية تمكن في تلك الفترة من إغراء « إبراهيم بن ينال » أخ « طغرلبك » من جهة أمه ، فأمده بالمال الوفير وشجعه على القيام بثورة ضد أخيه وانتزاع القيادة منه . . . وبالفعل وقع ما كان ينتظره « المؤيد » وانقسم جيش « التركمانية » إلى فريقين متحاربين ، وهذا ما شجّع « البساسيري » على

الإسراع بالزحف فدخل بغداد سنة ٤٥٠ هـ. ورفع على شرفات قصورها الأعلام الفاطميّة ، وكان أول شيء فعله هو قتل الوزير «ابن سلمة» فأخرج من مخبأه وقيّد وكانت عليه جبة من صوف وطرطور من لبد أحمر ، وفي رقبته مخنقة جلود بعير . . . فبصق في وجهه أهل «الكرخ» عند اجتيازه بهم لأنه كان يتعصب عليهم ، وعندما وصل إلى معسكر «البساسيري» نصبت له خشبة وأنزل عن الجمل ثم ألبس جلد ثور وجعل له قرون في رأسه ، كما وضع في فكيه كلاّبان من حديد وصلب فظلّ يضطرب حتّى مات في آخر النهار .

أما بالنسبة للخليفة العباسي «القائم» فإن «البساسيري» أمر بإلقاء القبض عليه ، واشترط عليه أيضاً التنازل عن الخلافة للفاطميين لقاء الإبقاء على حياته . . . فرضي بذلك ووقع وثيقة اعترف فيها بأنه لاحق له ولا لأحد من العباسيين في الخلافة ، وأن هذا الحق للفاطميين وحدهم ،وبعد أن سلّم «للبساسيري» ثوبه وعمامته وشباكه أي «كرسي الخلافة» سمح له بالخروج فذهب وأقام في «حديثة — عانة» الواقعة على مقربة من «الأنبار» .

ويذكر التاريخ :

إن «البساسيري» بعد ذهاب القائم أرسل الثوب والعمامة

والشباك إلى الخليفة « المستنصر بالله » كما أعلن في الجامع « المنصور » وفي كافة مساجد العراق بخطبة الجمعة اسم « المستنصر بالله » وهكذا أصبحت بغداد تابعة للقاهرة « المعزيّة » ولأول مرة في التاريخ .

ومما تجدر الاشارة إليه أن الشعب العراقي في بغداد قابل هذا الفتح السريع بمظاهر الفرح والتأييد ، فتألفت المواكب وسارت الجموع في الشوارع وهي ترقص وتهلل وتردد :

يا بني العبّاس صدّوا ملك الأمر معدّ
ملككم كان معاراً والعواري تُستردُّ

بعد هذا الانتصار الحاسم الذي تمّ بتدبير « المؤيد في الدين » وبعد أن استقرت الأحوال في بغداد ، وأصبحت تابعة للدولة الفاطمية . . . عاد « المؤيد » إلى مصر وهو يعتقد أنه حقّق أكبر خدمة للدولة الفاطمية ، وكانت آماله بأن رجال الدولة سوف يخفون لاستقباله والترحيب به . . . ولكن آماله خابت لدى وصوله إلى القاهرة « المعزيّة » فلم يستقبله أحد وعلى العكس رأى الوجوم بادياً على الوجوه وكأنه قد اقترف ذنباً . . . وبالرغم من كل هذا قابل الخليفة « المستنصر بالله » وقدّم له تقريراً عن كل الوقائع ثم نصح الدولة بأن تتعجل بتقديم المساعدات من أموال ومحاربين ورجال إلى « البساسيري »

وإلاّ فإن الأمور قد تفلت من يديه . . . ولكن لم يستجب أحد لهذا المطلب . . . وهكذا ضيّع الفاطميون تلك الفرصة الذهبيّة التي هيأها لهم « المؤيد » بتدبيره وإدارته وحسن سياسته . . . والحقيقة : لو أنهم نفّذوا وصاياه وساروا على منهاجه إذن لكانت حركته التي قام بها محت الخلافة العباسية من عالم الوجود ، ولكان تغيّر وجه التاريخ الإسلامي .

لم يدم الحال طويلاً مع « البساسيري » فبعد أن فرغ « طغرلبك » من قتال أخيه « إبراهيم » بالقضاء على ثورته زحف على بغداد بقوات كبيرة ، وعندما أيقن « البساسيري » أن لا قبل له على مقابلته بالجيش الموجود تحت امرته سيما وأن الخلاف قد دبّ في صفوف جيوشه بين العرب والأتراك . . . من جهة ثانية فإن المساعدات المالية والعسكرية التي وُعد بها لم تأتِ من مصر . . . وهذا كله جعله في حالة يأس ، فقرر الخروج من بغداد مع جيشه إلى « الكوفة » وكان ذلك سنة ٤٥١ هـ . وعندما دخل « طغرلبك » إلى بغداد أحضر الخليفة العباسي ، وأعاده إلى قاعدته وقصره كما أرسل قائده « خمارتكين الطغرائي » في ألفين فارس إلى « الكوفة » وأضاف إليهم سرايا « ابن منيع الخفاجي » كما سار هو في أثرهم على رأس جيش آخر وهكذا لم يشعر « البساسيري »

والأمير « دبيس بن مزيد » إلاّ والجيوش قد وصلت ، وهنا تفرقت جيوش البساسيري عنه وبدأت تخرج من الكوفة فلحقها « ابن مزيد » يروم إرجاعها ولكنه لم يتمكن ، ولم يبق مع « البساسيري » إلاّ قلة من الرجال وبالرغم من ذلك حمل على « خمارتكين » ولكن في نهاية المعركة وقع أكثر أصحابه أسرى وهم : « أبو الفتح بن ورام » و « منصور وبدران وحمّاد» أبناء الأمير « دبيس بن مزيد » نور الدولة ... وفي إبّان المعركة أصيب « البساسيري » بسهم طائح فلحق به من عرفه وهم من رجاله كما ذكر التاريخ وكان قصدهم أخذه حيّاً وحمله إلى « طغرلبك » فلم يستطيعوا تحقيق أمنيتهم لأن السهم أصاب منه مقتل . . . وهنا حزّ رأسه وحمل إلى « بغداد » حيث جعل على رأس رمح طيف به في أنحاء العاصمة العباسية ، ثم صُلب أخيراً قبالة « باب النوبي » .

إلى هنا طويت صفحة من تاريخ « المؤيد في الدين » وإلى هنا يتوقف نشاطه السياسي . . . وهنا أي في المرحلة الأخيرة يبدأ الغموض يكتنف حياته... والأقوال كثيرة... ولكن الأرجح أنه قام للعزلة وتفرّغ للشؤون العلمية والأدبية يبكي حظه ، ويأسف على الأيام التي صرفها في الجهاد لأجل العقيدة والمبدأ الذي آمن به ، ثم يعود ليرثي أصحابه الذين استشهدوا في

سبيل نصرة الدولة الفاطميَّة وهو بعيد عنهم ولا يملك ما يساعدهم أو يخفف عنهم الأذى والموت . وكان لسان حاله يردد :

« أبحتُ حمى دمي فيهم وفيهم
خسرتُ شبيبتي وربيع عمري
ومنهم سرتُ عن وطني غريباً
أجوبُ الأرض قفراً بعد قفرِ
أضاعوني وأيّ فتىً أضاعوا
ليوم كريهةٍ وسداد ثغرِ »

ذكر التاريخ :

أنه نفيَ إلى « الرملة » بأمر من الوزير « عبد الله بن المدبر » ثم أعيد فيما بعد إلى القاهرة .

كان المؤيد من أكابر العلماء في عصره ، عارفاً بجميع العلوم ، قوي الحجة في مناظراته ومناقشاته مع مخالفيه ، عظيم الإقناع مؤثراً في السامع ، ويكفي أن يكون القاضي اليمني « الملك بن مالك » و « ناصر خسرو » و « الحسن بن الصبّاح » من تلامذته الذين درسوا عليه العقائد الفاطميّة وقواعد الفلسفة . وصدق « أبو العلاء المعري » حين قال عنه :

« وسيدنا الرئيس الأجل « المؤيد في الدين » ما زالت حجته باهرة ودولته عالية . . . والله لو ناظر « أرسططاليس » لجاز أن يفحمه ، أو « أفلاطون » لنبذ حججه خلفه » .

توفي المؤيد في الدين سنة ٤٧٠ هـ في القاهرة « المعزيّة » ودفن في دار العلم ، وصلّى عليه الخليفة « المستنصر بالله » .

ترك المؤيد عدداً من المؤلفات ، وباعتقادي أن أهمها « سيرته » التي يعطينا منها صورة صادقة دقيقة لما كانت عليه مصر في النصف الأول من القرن الخامس الهجري وهكذا بالنسبة لبغداد ، وفي هذه الحالة نراه يخلع عن نفسه صفته المذهبية ويطرح عقيدته الدينية ، ويرتدي مسوح المؤرخ العالم الذي يكتب ليرضي نفسه وضميره قبل أن يرضي السلطان أو الوزير ، ويصف ما شاهده من وقائع وأحوال دون أن يتأثر بمؤثرات الدين ، أو يتطلع إلى رئاسة ، فقد تحدث عن بلاط الخليفة وانتقده كما تحدث عن الوزراء ورجال الدولة الذين استغلوا طيبة قلب الخليفة فتلاعبوا بالبلاد وبالمقدرات لمصلحتهم الشخصية حتّى اضطربت أمور مصر وأدّى الأمر إلى المحنة التي عرفت في التاريخ بالشدة العظمى « المستنصرية » .

في الواقع لم يأتِ « المؤيد » في هذا الحديث بشيء جديد على

المؤرخين ، فإن ذلك كله مسطّر في كتب التاريخ ، ولكن الجديد الذي لا نكاد نرى له مثيلاً في كتب التاريخ الإسلامي... إن المؤرخ « المؤيد » تحدث بصراحة وعلى مسمع من الوزراء ووجّه الانتقادات وذكر العيوب . . . بينما لم يعوّدنا المؤرخون أن يوجهوا انتقاداً أو لوماً إلى الملوك والأمراء بل كان أكثرهم يمرون بعيوبهم مر الكرام دون أن يتجاسروا على ذكرها وهذا بالإضافة إلى تغيير الحقائق التي كانوا يسجلونها في كتبهم لجلب منفعة أو دفع مضرة .

ونلاحظ أن المؤرخ « ابن خلدون » تحدث في مقدمته حديثاً طويلاً عن هؤلاء المؤرخين وضرب أمثلة عديدة لأقوال بعضهم وناقشها مناقشة دقيقة واضطر إلى دفعها أخيراً .

أما « المؤيد في الدين » فقد كتب ما كتبه في سيرته دون أن يتطلع إلى منفعة يبتغيها أو يخشى أذى يلحق به . . . فكانت كتابته على هذا النحو جديدة على التاريخ الإسلامي ،ويكفي أن تقرأ أقوال المؤيد عن حالته النفسيّة قبل أن يدخل مصر وبعد أن استقرّ بها لتدرك أنه كان صادق اللهجة في حديثه، دقيقاً في تعبيره عن شعوره وإحساسه..

والخلاصة :

فإن « المؤيد في الدين » لم ينل في حياته كل ما تمناه ،

فالدولة الفاطمية التي فاء إلى ظلها ، لم توله ما يستحقه من عناية وتكريم ، ومن سوء حظه أن الخليفة « المستنصر بالله » كان مشغولاً عنه بأمور داخلية عنيفة ... فدولته الفاطميّة كانت تعصف بها العواصف من كافة الجهات ، وتتقاذفها الأمواج الصاخبة ذات اليمين والشمال .

وهكذا فإنّ العباقرة المخلصين لوطنهم في كل زمان ومكان يتعرضون للحسد وللأذى ، وللظلم في حياتهم ، وللتقدير والرحمة والذكرى بعد مماتهم .

ثورات داخلية

في سنة ٤٤٢ هـ. ثار عرب « بني قرّه » بالبحيرة على الدولة الفاطمية ، وكانوا قد استقروا فيها وملكوها وعمروا ضياعها وانضم إليهم « الطلحيون » ، واشتدت شوكتهم حتى ضاق بهم ولاة الاسكندرية ، وكان الوزير « اليازوري » قد ولّى عليهم رجلاً يقال له « المقرّب » فأنفوا من ذلك وطالبوا بعزله ، وعندما رفض طلبهم ، شقوا عصا الطاعة ، فاضطرّ « المستنصر بالله » أن يجرّد عليهم حملة عسكرية ثم اتبعها بأخرى فالتقوا بهم (بكوم شريك) وهناك دارت الدائرة عليهم واضطروا إلى الفرار هم و « الطلحيون » إلى « برقة » ثم انقطع أثرهم في البحيرة .

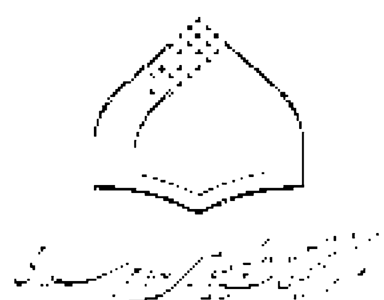
ولمّا كان إقامة الجند في أعمال البحيرة يكلف الدولة نفقات باهظة فإن « اليازوري » الوزير أرسل إلى « بني « سبنس » وهم قبيلة من « طي » وكانوا « بالداروم » جنوبي

« غزة » فأقطعهم دياز « بني قرة » وبذلك محي كل أثر لهم .

ومن سنة ٤٦٦ هـ. إلى سنة ٤٦٩ هـ. ظلّ الوزير « بدر الجمالي » يتتبع المفسدين من الأمراء والقواد والأعيان الذين تمرنوا على الفساد وأعمال الفتن وخلق الاضطرابات فقض بادىء ذي بدء على أمراء الأتراك ، واستطاع قتل معظمهم في وليمة أولمها لهم ثم قبض على الباقين ، وبعد ذلك خرج إلى الوجه البحري سنة ٤٦٧هـ. فقضى على قبيلة « لواته » البربرية واستصفى أموالها ويقال انه قتل منها عشرين ألفاً . ثم توجه بعد ذلك إلى « دمياط » فقضى على المفسدين فيها ثم عبر إلى البر الغربي فقتل العديد من الطائفة « الملحية » حتى وصل إلى الاسكندرية فاستأصل المفسدين فيها ، وبعد ذلك ذهب إلى الصعيد حيث اجتمع عليه بمدينة « طوخ العليا » جماعة من عرب « جهينة » و « الثعالبة » و « الجعافرة » لقتاله . فسار إليهم وطرقهم ليلاً حيث أفنى أكثرهم قتلاً وقد غرق من فرّ منهم ، وصادر أموالهم . ومن هناك سار إلى « أسوان » حيث قضى على ثورة « كنز الدولة — محمد بها » كما قضى على عرب « قيس » و « سليم » و « فزارة » وطرد من بقي منهم إلى « برقة » .

وفي هذه الفترة وصلته أوامر الخليفة « المستنصر بالله »

بالعودة إلى القاهرة « المعزيّة » لمواجهة خطر « أتسذ » صاحب دمشق الذي قاد حملة وجاء رامياً الاستيلاء على مصر وإقامة الدعوة العباسية ولكن « بدراً » عاد واستقبله وخاض معه عدة معارك انتهت بهزيمته شرّ هزيمة ولكن بعد أن عاثت جيوشه خراباً في ريف مصر .



أحداث المغرب

مرّ معنا أن الولاية الفاطمية في المغرب كانت معقودة اللواء « للمعز بن باديس آل زيري الصنهاجي » وهذا حتّى عهد « الخليفة السابع » « الظاهر لإعزاز دين الله » .

وفي سنة ٤٤٣ ﻫ . خلع « المعز » طاعة الفاطميين نهائياً وأعلن الولاء للعباسيين وكان في الوزارة في ذلك العهد «اليازوري» الذي كان في باطنه يضمر العداء« للمعز » وهنا أشار «اليازوري» على الخليفة « المستنصر بالله » إرسال القبائل العربية من أحياء « هلال ، وزغبة ، ورباح ، وربيعة، وعدي» الموجودة في مصر إلى المغرب للاستيلاء عليه ولما كانت الدولة الفاطمية تعاني من عدم تمسك هذه القبائل بالنظام فإن « المستنصر بالله » وافق على الفكرة وعلى الفور أزيل ما بينها من خلاف وتحمّلت الدولة ما بينها من ديّات ، ثم أجزل لأمرائها العطاء ، واختير « الحسن بن علي بن ملهم بن دينار العقيلي » مندوباً من قبل

الخليفة لموافقة القبائل ولكي يكون حلقة الوصل بينها وبين الخليفة « المستنصر بالله » .

وذكر التاريخ :

إن « المعز بن باديس » سار إليهم قبل أن يتحركوا من « برقة » ولكنهم هزموه واندفعوا وراءه وهو يتراجع حتى « المهدية » وهنالك تمكنوا من احتلالها والاستيلاء على قصور « الزبيريين » فعاد « علي بن ملهم » إلى القاهرة محملاً بالأسلاب والغنائم التي نهبت من قصورهم ومن قصور الأمراء المؤيدين لهم .

وقد تبعت هذه الهجرة هجرات أخرى من عرب بني هلال الذين لحقوا بأخوتهم وأبناء عمومتهم ، كما انضمت إليهم قبائل عربية أخرى كانت موجودة في المغرب .

وبنتيجة الفتح قلد « موسى بن يحيى المرداسي » « القيروان وباجة » وعقد « لزغبة » على « طرابلس وقابس » كما عقد « لحسن بن سرحان » على « قسطنطينة » .

ومهما يكن من أمر فقد انتهت هذه الحركة باستيلاء العرب على المغرب واقتسامهم إياها وتدميرهم كل شيء وقع في

طريقهم ، فقد ملكوا الأرباض ودان لهم بني باديس ، وأصبحوا يؤدون الإتاوات ... وهكذا دان المغرب « للمستنصر بالله » بالولاء ، وتم تعريب شمالي أفريقيا لأن هذه الغزوة أحدثت في المغرب تعديلاً جنسياً وعنصرياً وذلك بامتزاج العرب بأهل البلاد . . . ومنذ ذلك الوقت أصبح المغرب عربياً .

ويظهر أن « المعز بن باديس » ندم على ما فعل . . . فبعد ذهاب اليازوري سنة ٤٥٢ هـ . نراه يعود إلى الاتصال « بالمستنصر بالله » وإرسال الهدايا إليه ومنها أوراق مرسمة بالجوهر كانت للخليفة الفاطمي الأول « عُبيد الله المهدي » ولكن الاضطرابات التي عمّت البلاد في أواخر عهد « المستنصر بالله » جعلت العلاقة بين مصر والمغرب في حكم المنقطعة .

وذكر التاريخ :

إن « يحيى بن باديس » سنة ٥٠١ هـ. رجع إلى طاعة الفاطميين ولما مات خلفه ابنه « علي » سنة ٥٠٩هـ. وقد وصله رسول من خليفة مصر ، أما « الحسن بن علي » ففي عهده ملك « رودجز » صاحب « صقلية » ساحل أفريقيا وظل في يده حتى استولى عليه « الموحدون » .

في ديار الشام

مرّ معنا أن الخليفة « الظاهر لإعزاز دين الله » استعان بالقائد « أنوشتكين الدزبري » وعهد إليه قيادة حملة عسكرية لاستعادة سيطرة الفاطميين عن الشام فخرج سنة ٤٢٠ هـ . متوجهاً بادىء ذي بدء إلى « الرملة » ثم إلى « بيت المقدس » وهناك التقى مع الخارجين قرب « الأقحوانة — طبريا » فتمكن بعد عدة معارك من قتل « صالح بن مرداس » وابنه الأصغر ، وهرب « إحسان بن الجراح » إلى الأمبراطور البيزنطي .

وأخيراً وصل « الدزبري » إلى دمشق ، ومكث فيها متحيناً الفرص للاستيلاء على حلب، وفي سنة ٤٢٩ هـ. استولى عليها وأصبح هو الحاكم المطلق في ديار الشام كلها ، ولكن العلاقات ساءت بين الوزير « الجرجائي » و« الدزبري » فاتّهمه بنزعة الاستقلال بالحكم ولهذا ألّب ثورة في جيشه ، وأغرى بعض

القادة العسكريين على الخروج عليه ، فحاول « الدزبري » قتال المنشقين ولكنه فشل ، فخرج إلى « بعلبك » ولكن واليها منعه من الدخول ، ثم قصد « حماه » فمنع عنها أيضاً ، فسار إلى « حلب » ودخلها بمساعدة « المقلّد بن منقذ الكفرطابي » سنة ٤٣٣ هـ . ولما عاد إلى دمشق وصل سجل الخليفة باتهامه بالخيانة ، فأرسل يستعطفه دون جدوى . وعندما يئس رجع إلى « حلب » وعكف على الشراب حتى مرض من الحزن ومات سنة ٤٣٣ هـ .

بعد « الدزبري » عاد الأمن يختل من جديد في ديار الشام ، وأخذ العرب يعيثون فساداً . واستبد « حسّان بن مفرج الطائي » بفلسطين ... وقام « الحسين بن حمدان ناصر الدولة » متولي دمشق من قبل الفاطميين يعمل لمنع وقوع دمشق في أيدي العرب ثم أنه هاجم حلب بقصد انتزاعها من « ثمال بن صالح بن مرداس » ولكنه عاد بدون طائل ، ومن المعروف أن « ثمال » ظل محتفظاً بحلب حتى جاء « المؤيد في الدين » فأعاده إلى الحظيرة الفاطمية ، وبعد « ابن حمدان » تولّى الحكم في الشام « مظفّر الصقلبي » فقبض على « ابن حمدان » . واعتقله في « صور » ثم « بالرملة » وفي هذه الفترة خرج . رفق الخادم « بعسكر عدته ثلاثين ألفاً بقصد

محاربة « بني مرداس » ولكنهم ظفروا به وسجنوه في قلعة « حلب » ثم أفرج أخيراً عن « ابن حمدان » فذهب إلى القاهرة ومات فيها .

أما أسرة « بنو مرداس » فبعد « ثمال » تسلّم الحكم « عطية بن صالح بن مرداس — أبو ذؤابة » وكان أخوه قد أوصى له بذلك سنة ٤٥٢ هـ . ولكن ابن أخيه « محمود بن شبل الدولة نصر بن صالح » انتزعها منه ، فسار « عطية » إلى « الرقة » وملكها ، وما زال فيها حتّى أخذها منه « مسلم بن قريش » سنة ٤٦٣ هـ .

ومما هو جدير بالذكر أن « حلب » ظلّت على أوضاعها المتقلبة كما ذكرنا حتّى استولى عليها أخيراً سنة ٤٦٣ هـ « ألب ارسلان السلجوقي » .

هذا بالنسبة لحلب ، أما لديار الشام فإن اضطراب الأحوال في مصر جعل السلاجقة يتطلعون إليها فجردوا حملتهم المشهورة سنة ٤٦٥ هـ وبدأوا باحتلال المعاقل والبلدان .

وعندما استقرت الأحوال في الديار المصرية وجّه الفاطميون الجيوش لاستعادة دمشق ، ولكن هذه الجيوش

عادت دون أن تتمكن من احتلال أي بلد ، فأعادوا الكرة وهنا استعان « اتسز » حاكمها بتاج الدولة « تتش بن ألب ارسلان » فجاء « تتش » إلى دمشق وهزم الفاطميين ثم استولى على دمشق وقتل « اتسز » كما زحف إلى « بعلبك » وأزال عنها الحكم الفاطمي .

وقد كنّا ذكرنا أن « اتسز » قطع خطبة الفاطميين من ديار الشام ، ولم تعد الخطبة إليها بعد ذلك . كما أنه حاول الاستيلاء على مصر نفسها . فهاجمها سنة ٤٦٩ هـ منتهزاً فرصة انشغال « بدر الجمالي » في القضاء على الفتن والثورات في « الصعيد » فاستولى على « الدلتا » ولكن بدر عاد إلى القاهرة وهاجم « اتسز » وألحق هزيمة منكرة بجيشه . ففرّ « اتسز » أخيراً إلى الشام بمفرده ، وفي تلك الفترة ثار عليه أهل « غزة والرملة وبيت المقدس » إلاّ أنه استطاع إخضاعها بالسيف فيما بعد .

وقاد « بدر الجمالي » حملة لفتح دمشق سنة ٤٧٨ هـ. فحاصرها مدة وقاتل « تتش » إلاّ أنه لم يتمكن من دخولها ، فعاد إلى مصر ... وفي سنة ٤٨٢ هـ . أرسل قائده « ناصر الدولة » فاحتل مدن الساحل أي « صور وصيدا وعكا وجبيل وبعلبك »

وهنا حاول السلاجقة استعادة ما استولى عليه الفاطميون ثم مهاجمة مصر نفسها ، فاجتمعت جيوش « تتش » في دمشق وجيش « أقسنقر » في حلب ، و « بوران » في الرها وتعاهدوا على اللقاء في « حمص » سنة ٤٨٣ هـ. وبدأوا باحتلال بعض القلاع الفاطمية ولكن هذه الحملة فشلت أمام « طرابلس – الشام » نتيجة مساعي صاحبها الفاطمي « ابن عمّار » .

ومات الخليفة « المستنصر بالله » وليس للفاطميين إلا بعض مدن الساحل في بلاد الشام ، وبالنسبة للسلاجقة فإن الخلاف لم يلبث أن دبّ بينهم فوقع النزاع بين « تتش » وابن أخيه « بركياروق » سنة ٤٨٦ هـ. وأدّى ذلك إلى قيام الحرب بينهما وقد انتهت هذه الحرب بمقتل « تتش » سنة ٤٨٨ هـ. فاقتسم أبناؤه « دقّاق ورضوان » أملاك أبيهما ، فاستقل « رضوان » بولاية حلب ، و « دقّاق » بدمشق . . . وكانت الفرصة مهيأة في هذه الفترة إلى استعادة الشام وحلب للفاطميين لولا وقوع الفتنة الكبرى بين أولاد « المستنصر بالله » .

في نهاية المطاف لا بد من القول :

بأن سلطان الفاطميين في عهد « المستنصر بالله » امتدّ إلى الشام وفلسطين والحجاز واليمن وشمالي أفريقيا وصقليّة ،

وكان اسمه يتردد في الجوامع الإسلامية من المحيط الأطلسي غرباً حتى البحر شرقاً . . . وهكذا بالنسبة لصقلية .

ولكن بعض هذه البلدان لم تلبث أن خرجت الواحدة تلوَ الأخرى وأولها « صقلية » التي استولى عليها « روجرز » الرومي ثم تبعتها المدن الأخرى في الشرق والغرب كما ذكرنا.

إن كل ما حدث في عصر « المستنصر بالله » يعتبر بداية النهاية ، فالدولة الفاطمية كانت في طريقهـــا إلى الانهيار والزوال . . . كانت على حافة الشيخوخة تتقدم نحو المصير المحتوم .

فهرست المواضيع

مصادر البحث التاريخية

تاريخ الدولة الفاطمية ـــ حسن إبراهيم حسن ١٩٥٨

الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية .

حسن إبراهيم حسن ١٩٣٢

تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي .

حسن إبراهيم حسن . ١٩٤٦

النظم السياسية بالاشتراك مع علي إبراهيم حسن ، حسن

إبراهيم حسن . ١٩٣٩

عبيد الله المهدي بالاشتراك مع طه أحمد شرف . ١٩٤٥

المعز لدين الله بالاشتراك مع طه أحمد شرف . ١٩٤٧

كنوز الفاطميين ، زكي محمد . ١٩٣٧

تاريخ جوهر الصقلي ، علي إبراهيم حسن . ١٩٣٣

في أدب مصر الفاطمية ، محمد كامل حسين ١٩٥٠

الصليحيون ، حسين همداني ١٩٥٥

النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ، محمد جمال سرور ، ١٩٥٧
مصر في عهد الدولة الفاطمية ، محمد جمال سرور ١٩٥٧
افتتاح الدعوة ، النعمان بن حيّون ...
المجالس والمسايرات ، النعمان بن حيون —
الهمة في آداب أتباع الأئمة ، محمد كامل حسين ١٩٥٠
عيون الأخبار ، إدريس عماد الدين —
مجموعة الوثائق الفاطمية ، جمال الدين الشيّال ١٩٥٨
الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ، محمد عبد الله عنان . ١٩٣٧
نظم الفاطميين ورسوهم في مصر ، عبد المنعم ماجد ١٩٣٧
السجلات المستنصرية ، عبد المنعم ماجد . ١٩٥٤
الامام المستنصر بالله الفاطمي ، عبد المنعم ماجد . ١٩٦١
الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه، عبد المنعم ماجد ١٩٥٩
نظم الحكم في مصر الفاطمية ، مصطفى عطيه مشرفه ١٩٤٨
سيرة جعفر الحاجب ، و . إيفانوف . ١٩٣٠
صلة تاريخ الطبري ، غريب بن سعد —
كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ، الباقلاني. ١٩٣٩
رسائل الحاكم بأمر الله كتب سنة ٤٠٨ ، (مخطوط بدار الكتب المصرية) .

فرق الشيعة		النوبختي
اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا		المقريزي
عبقرية الفاطميين ، محمد حسن الأعظمي .		١٩٦٠
نظام الوزارة في العصر الفاطمي ـ مقالة في مجلة الثقافة ،
جمال الدين الشيال .		١٩٥١
أصل الذمة في العصر الفاطمي ، مقالة في مجلة
المقتطف ، جمال الدين الشيال .		١٩٥٤
البيان المغرب في أخبار المغرب ، ابن عذارى .
سيرة الأستاذ جوذر الكاتب ، محمد كامل حسين ومحمد عبد
الهادي شعيرة .
أخبار ملوك بنو عبيد وسيرتهم ، فوندر ، ليدن .		١٩٢٧
معجم البلدان		ياقوت الحموي
تاريخ الرسل والملوك		الطبري
تقويم البلدان		أبو الفداء
كتاب البلدان		اليعقوبي

المصادر الأجنبية

The Alleged - Founder of Ismailism - Bombay - W Ivanow - 1946 .

The Origins of Ismaïlism : B. Lewis .

The Quaddahid Legend : Abbas Hamdani .

Mémoires sur les Quarmates de Bahrein et les Fatimits - Leyden - 1886 (De Goeje)

Polimics on the origin of the Fatimis - Caliphs - (Prince - Mamour - London 1934) .

Fatimid - Degrees - Stern - S.M. London .

Quelques Chroniques Anciennes aux derniers Fatimides 1937 .

L'impérialisme des Fatimides et leur propagande (1942-1947) .

Essaie sur l'histoire des Ismailiennes de la Perse : (Defremery, M.C.)

Fragments relatif à la Doctrine des Ismailis Hamdani , Paris , 1874 .

Studies in The Early Persian Ismaïlism - Leyden - 1948 .

The rise of the Fatimids - (Calcuta,) 1942 .

A Guide to IsmaïliLiterature:London,1933.W.Ivanow

A short history of the Fatimid Khalifate - London (1923).

Description du Maghreb — Leiden 1860.

The letters of Al Mustansir — School of oriental of London 1934.

Enquête aux pays du Levant — « M. Barrès ».